

## الفصل الثاني

### مصادر الثروات فيها

كان جمهورُ العربِ في الجاهلية يعتمدون على الرعي من حيث إنه أهمُّ مصدرٍ للحياة، حيث تنقل القبائل العربية بآبالها وأغنامها وخيولها بحثاً عن المراعي ومواطن الكلاً والعشب، ويمكن القول بأن العرب لم يكونوا يعيشون في الجاهلية معيشةً واحدةً، فهذه القبائل جميعاً توزعتها طبقات اجتماعية مختلفة، فمنهم من اشتغل بالتجارة وطوّفَ في البلدان لأجلها، ومنهم من جعل صيد حيوان الصحراء شغله الشاغل، ومنهم من وقف حياته على التربيص بأبناء جلدته، ومنهم من انتحل الصناعة أو عمل بالزراعة وهكذا.

واشتهر العرب في الجاهلية بالتجارة شهرةً واسعةً - لا سيما قريش -، وكانت الجزيرة العربية تُمثل بحراً واسعاً تخترقه قوافل الإبل في شبه مجموعات من السفن تمخر عباب هذا البحر الفسيح، وكانت مكة هي رائدة التجارة في الجاهلية، فقد تهيأت لها أسباب سياسية ودينية واقتصادية جعلتها مركزاً هاماً للتجارة آنذاك، وكان في الجزيرة العربية طريقان عظيمتان للتجارة بين الشام والمحيط الهندي، ومن الطبيعي أن طرق القوافل في الجزيرة العربية كانت تتبع المسالك المعروفة، حتى تضمن فرص وجود الماء، وفي الوقت نفسه تسلك طريقاً آمناً لكثرة من يطرّقه من الناس، وعلى هذا كان هناك طريقان رئيسان للقوافل: إحداهما تسير شمالاً من حضرموت إلى البحر على الخليج العربي، ومن ثم إلى صور، والثانية تبدأ من حضرموت إلى البحرين على الخليج العربي، ومن ثم إلى صور، والثانية تبدأ من حضرموت أيضاً وتسير محاذية للبحر الأحمر متجنباً صحراء نجد وهجيرها، ومبتعدة عن هضاب الشاطئ ووعورتها، وعلى هذا الطريق الأخيرة تقع مكة في المنتصف تقريباً بين اليمن وغزة<sup>(١)</sup>.

وكانت مكة في الجاهلية مدينةً تجاريةً عظيمةً، وكان فيها البيت الحرام الذي يُقدّسه جميع العرب، فكانوا يحجون إليه، ويعظمون أصنامهم وأوثانهم فيه، وكانت قريش سدة هذا البيت، يقومون بالعناية به والحفاظة عليه، فأكسبهم ذلك احتراماً عظيماً ومكاناً كريماً، ومن ثم كانت لهم منزلة سياسية في نفوس العرب جميعاً مما

(١) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ١٢

كان له أثر كبير في تحسين مركزهم التجاري الممتاز، فنشطت التجارة في مكة نشاطاً عظيماً، واشتهرت قريش بها، وأثرت بسببها إثراء ملموساً حتى إن صاحب لسان العرب ليقول:

إنها سميت بهذا الاسم لأنهم كانوا أهل تجارة، من قولهم: فلان يتقرش المال، أي: يجمعه<sup>(١)</sup>، وقد امتن الله عليهم بهذا الثراء وما كانوا فيه من أمن بقوله تعالى: ﴿لِيَلْفِ قَرِيشٌ، إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

فكان لهم رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى بلاد الشام، وكانت السلع التي تتاجر بها قريش، هي الأدم والزبيب والصمغ والطيب، والتبر والحريز والبرود اليمانية والثياب العدنية، والأسلحة ومصنوعات الحديد، والذهب من مناجم بني سليم، ثم السلع المستوردة من إفريقية والهند والشام وحوض البحر الأبيض المتوسط، وكذلك المنسوجات النفيسة الغالية التي استوردها التجار لبلاد العرب كالديباج والإستبرق والسندس، التي كان يتنافس الأغنياء وذوي الثراء والجاه في اقتنائها ولبسها<sup>(٣)</sup>.

وكانت التجارة عصب الحياة الاقتصادية في بلاد العرب قبل الإسلام، وقد اشتغل بها كثير من السكان من الحضرة والبدو، بالإضافة إلى أعمالهم التي فرضتها عليهم بيئتهم الصحراوية الرعوية، وقد جاء هذا النشاط الاقتصادي التجاري من الموقع الجغرافي للجزيرة العربية، فهي تتحكم في الطريق التجاري العظيم الممتد من الهند والشرق الأقصى إلى الأسواق المطلّة على شرق البحر الأبيض المتوسط.

وقد تركّز نشاط عرب الحجاز التجاري في أيدي قبيلة قريش صاحبة السيادة على مكة التي كانت أهم محطة تجارية على طريق القوافل العظيم.

وارتبط هذا النشاط التجاري الذي ساد بلاد العرب في العصر الجاهلي بتعدد الأسواق التي كان لها أثر عميق في تحديد موارد الرزق، وتنظيم أمور المعيشة عند

(١) لسان العرب لابن منظور ٢٢٥/٨ (قرش).

(٢) سورة قريش رقم ١٠٦.

(٣) تاريخ الأدب الجاهلي للدكتور علي الجندي ج١ ص ٨٦. بتصرف.

العرب جميعاً، الحضرم منهم والبدو، حيث كان يتم فيها تبادل السلع والبيع والشراء، والأخذ والعطاء، وهذه الأسواق كثيرة، منها ما كانت ثابتة على أيام السنة، ومنها ما كانت موسمية تُعقد في مواسم معينة، فإذا انتهى الموسم انفضت، كما كانت متفرقة في أنحاء الجزيرة العربية، حتى تنال كل بقعة نصيبها منها، ولا يحرم بعض السكّان من وجود هذه الأسواق في ديارهم، كما جعلوا لكل منها وقتاً خاصاً، بحيث لا يتعارض بعضها مع بعض، وحتى يستطيع كل من شاء أن يحضر جميع هذه الأسواق دون أن تفوته واحدة منها، وقد أفاض الألويسي بذكر هذه الأسواق ومواقيتها<sup>(١)</sup>. ومما ذكره من هذه الأسواق:

دومة الجندل: وكانوا ينزلونها أول يوم من ربيع الأول، وكانت المبايعة تتم فيها ببيع الحصاة<sup>(٢)</sup>، وهو من بيوع الجاهلية التي أبطلها الإسلام، وكان يرعى الناس ويقوم بأمرهم أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل، وتستمر سوقهم إلى نصف الشهر، وقد يغلب على السوق بنو كلب فيقوم بأمرهم بعض رؤسائهم، وتستمر سوقهم عند ذلك إلى آخر الشهر.

وسوق هجر: بالبحرين، وكانوا ينتقلون إليها في شهر ربيع الآخر، ويتولى أمرهم المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم.

وسوق عمان: وكانوا يرتحلون من سوق هجر إليها، فتقوم سوقهم بها، وتستمر إلى أواخر جمادى الأولى.

وسوق ذي المجاز: وكانت لهذيل، وهي على بعد فرسخ من عرفة.

(١) بلوغ الأرب للالوسي ج١ ص ٢٦٤ وما بعدها.

(٢) بيع الحصاة: هو من بيوع الجاهلية التي أبطلها الإسلام، وفُسر بأن يقول أحد المتبايعين للآخر: ارم هذه الحصاة فعلي أي ثوب وقعت فهو لك بدرهم، وفُسر بأن يبيعه من أرضه قدر ما انتهت إليه رمية الحصاة، وفُسر بأن يقبض على كف من حصي ويقول: لي بعدد ما خرج في القبضة من الشيء المبيع، أو يبيعه سلعة ويقبض على كف من الحصي ويقول: لي بكل حصاة درهم،... وفُسر بأن يعترض القطيع من الغنم، فيأخذ حصاة ويقول: أي شاة أصابتها فهي لك بكذا، وهناك تفسيرات أخرى وهي صور كلها فاسدة لما تتضمن من أكل المال بالباطل، ومن الغرر والخطر الذي هو شبيه بالقمار، ولذلك أبطلتها الشريعة.

(الالوسي ج١ ص ٢٦٥).

وسوق مجنّة: وهو موضع قرب مكة، كانت تقوم به قرب أيام الحج، ويحضرها كثيرٌ من قبائل العرب.

وسوق عكاظ: وكانت أعظم مواسمهم وأسواقهم، وهو واد بين نخلة والطائف وهو أقرب إلى الطائف، وكانت تقوم أيام موسم الحج، وتحضرها كلُّ القبائل بشعرائها حيث يتفاخرون ويتحاجون ويتناشدون ما ينسال على ألسنتهم من أشعار.

ومن أسواقهم أيضاً سوق المُشَقَّر، وسوق صُحار، وسوق الشَّحْر، وسوق صنعاء وسوق حُباشة، إلى غير ذلك من الأسواق التي كانت تقيمها العرب وتحرصُ عليها، لأجل البيع والشراء وبسبب المفاخرة بالشُّعر والأدب، وبعبارة أخرى كانت الأسواق معرضاً عاماً لحياة العرب في جزيرتهم، بكلِّ أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والأدبية كذلك، وكان العرب في الجاهلية يستعملون النقود في معاملاتهم، يقول الدكتور جواد علي: "وقد استعمل أهل العربية الجنوبية النقود في معاملاتهم، استعملوا نقوداً سُكَّت من الذهب، ونقوداً سُكَّت من الفضة، وأخرى سُكَّت من النحاس ومن معادن أخرى، وقد عُثِر على نماذج من كلِّ نوع من هذه الأنواع، كما استعملوا نقوداً أجنبية أيضاً وصلت إليهم بتعاملهم مع الأسواق الأجنبية، وقد عُثِر على بعض منها في مواضع من جزيرة العرب أكثرها يوناني أو روماني" (١).

"أما أهل الحجاز (٢) فقد تعاملوا بالنقود الرومية والساسانية، تعاملوا بالدرهم وتعاملوا بالدينانير (٣)، ولعلهم كانوا يتعاملون بنقود أهل اليمن كذلك وبنقود أهل الحبشة، فقد كان أهل مكة تجاراً، يتاجرون مع اليمن، ويتاجرون مع العراق وبلاد

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي - المجمع العلمي العراقي ج ٨ ص ٢٠٠.

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٦.

(٣) الدرهم: قيل إنه فارسيٌّ معرب، وهو نُقْدٌ من الفضة، وهو معروفٌ في الفارسية والرومية، والظاهر أن العرب أخذوا بالتسمية الفارسية، على أن ذلك لا يعني أنهم لم يكونوا يستعملون دراهم الروم، وقد أطلقوا الدراهم على النقود عموماً في بعض الأحيان، من باب إطلاق الجزء على الكلِّ، والدينار من النقود اليونانية اللاتينية وهو مضروب من الذهب. وقد بقي العرب يتعاملون بالدينانير الرومية إلى أيام عبد الملك، حيث أمر بضرب الدينانير فُضِرَتْ بدمشق.

(المرجع السابق ج ٨ ص ٢٠٧).

الشام، وتجارتهم هذه تجعلهم يستعملون مختلف النقود، خاصة أنهم كانوا في مكان فقير لا يساعد على ضرب النقد فيه... وقد ذكر أهل الأخبار أن أهل المدينة كانوا يتعاملون بالدرهم عند مَقْدَمِ الرسول ﷺ، ويتعاملون بالعدد فأرشدتهم إلى الوزن كما يفعل أهل مكة، ودرهم أهل مكة ستة دوانيق، وعُدلت بعد الإسلام فكانت تعرف بالدرهم المعدلة وهي بوزن سبعة مثاقيل لكل عشرة دراهم.

وترتب على هذه الحركة المالية والتجارية عند العرب في الجاهلية خاصة إذا لاحظنا أن الأغنياء كانوا قلة، وأن الغالبية كانوا فقراء، ترتب على ذلك أن شاع السلب والنهب وقطع الطرُق، خصوصاً في متاهات هذه الصحراء الواسعة، وأمام القوافل التجارية التي كانوا يغيرون عليها. ومن ثم وجدت جماعة الصعاليك، وانتشر قطاع الطرُق، وكثرت الغارات، وكانت القوة هي صاحبة السيادة والسلطان.

وذكر الدكتور يوسف خليف في تعلييل انتشار حركات الصعاليك في منطقة السراة المحيطة بمكة، وفي قبيلة هذيل، التي اشتهرت بكثرة صعاليكها وذؤبانها أن للمسألة جانباً اقتصادياً، وقال: "إن من أسباب انتشار الصعاليك في هذه المنطقة وقوعها على الطريق التجاري الذي يصل بين اليمن والشام، مما جعلها ممراً للقوافل التجارية، هذا إلى قربها من مكة حيث تقام ثلاث أسواق مشهورة: عكاظ ومجنة وذو المجاز، جعل منها ميداناً نشطاً لحركات التجار في غدوهم ورواحهم، مما أتاح للمتمردين من صعاليك هذه المنطقة الفرصة المواتية للغارة والغزو للسلب والنهب، ولهذا السبب اضطر التجار في مناطق الأسواق إلى أن يتخفروا بالقبائل القوية التي تنزلها"<sup>(١)</sup> ولذلك كان يصحب القوافل التجارية أدلاء يحمونهم من الضلال في مجاهل الصحراء، ومن أشهرهم فرات بن حيان<sup>(٢)</sup>، كما كان يصحبهم خفراء يحمون قوافلهم من ذؤبان البادية أو صعاليكها، الذين تعودوا السلب والنهب والإغارة، وقد يبلغون ثلاثمائة عدداً، ومن أهم القبائل التي كانوا يخشون ذؤبانها قبيلتا هذيل وفهم<sup>(٣)</sup>.

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي د. يوسف خليف ص ١٣٣.

(٢) العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ص ٧٦.

(٣) المرجع السابق ص ٧٦.

وكانت حياة جمهور العرب تقوم على الرعي، فاعتمدت حياتهم عليه، حيث يتنقلون بأبالهم وأنعامهم وأغنمهم إلى مواطن الكلاً والماء والمرعى، يقول صاحب اللسان: إن أهل البادية "لا يزالون يشربون الماء العذ حتى يقع ربيع بالأرض فتتوزعهم النجع، وتتبعوا مساقط الغيث، يرعون الكلاً والعشب إذا أعشبت البلاد، ويشربون ماء السماء، فلا يزالون في النجع إلى إن يهيج العشب، وتنش الغدران فيرجعون إلى محاضرتهم على أعداد المياة"<sup>(١)</sup>.

ولذلك كانوا يحبون المطر ويقدمونه، ويفرحون بنزوله ويسمونونه الغيث، لأنه يغيث الأرض ويكسبها الخصب والنماء، ويغيث أهلها فيسقيهم ويحيي لهم الزرع والضرع، وحق لهم ذلك فإن المطر روحهم وعصب حياتهم وأساس وجودهم، ولأجله يتنقلون وراء الكلاً والماء، إذ إنه لا تستقيم لهم حياة بدون الأمطار التي عليها جل حياتهم.

والمشكلة الأساسية في حياة هؤلاء القوم هي عدم توفر المياه على مدار أيام السنة، وقد مررنا أن الجزيرة العربية بيئة صحراوية جافة في جملتها، وأن أمطارها قليلة بوجه عام، إذ لا تدوم آثار الأمطار إلا شهوراً معدودة ثم يحل الجفاف، وتتحول الصحاري إلى قطع من الجحيم، ولذلك لا عجب أن يكون المطر حديث مجالسهم في الليل والنهار، يتحدثون عن مواسمه، ويسألون عن أوقات نزوله، ويستفسرون عن الأمكنة التي أصابها. وإذا انحس عنهم المطر، نضبت الآبار، وجفت الوديان وأمحلت المراعي، وإذن ذلك بفنائهم وهلاك أنعامهم.

ومما زاد في بلائهم أن الجفاف يقترن غالباً بريح السموم التي تشوي الوجوه شيئاً. ولعل مما يصور أهمية المطر عندهم ما فعله الشعراء حين وقفوا كثيراً أمام المطر ومناظره التي خلبت أفئدتهم، واستهوت نفوسهم، فصوروا البرق وضوءه، والرعد وجلجلته، والسحاب ودنوه، وهطوله وسيوله ونزوله، ثم آثاره الواسعة في إحياء الأرض بعد موتها. وبلغ كذلك من شدة محبتهم للأمطار أنهم كانوا يدعون أن تنهمر الأمطار على قبور موتاهم وأحبائهم، فهي كناية عن الرحمة وعموم الخير.

(١) لسان العرب مادة (نجع).

والشعرُ الجاهلي حافلٌ بذكرِ المطرِ والسحابِ بحيث لا يُحصي ذلكَ عدُّ، وهذا المتنخلُ الهذلي - على سبيل المثال - يصفُ البرقَ والرعدَ والمطرَ والسحابَ، ويصفُ سيلاً جارفاً قَلَعَ الأشجارَ، فيصور ذلكَ بقوله:

هَلْ هَاجَكَ اللَّيْلُ كَلِيلٌ عَلَى      أَسْمَاءَ مِنْ ذِي صُبْرٍ مُخِيلٍ  
 أَنْشَأَ فِي الْعَيْقَةِ يَرْمِي لَهُ      جُوفُ رَبَابٍ وَرِهِ مُثْقَلٍ  
 فَالتَطُّ بِالْبُرْقَةِ شُؤْبُوبُهُ      والرَّعْدُ حَتَّى بُرْقَةِ الْأَجْوَلِ  
 أَسْدَفٌ مُنْشَقٌّ عَرَاهُ فذُو الْأَ      دَمَاتٍ مَا كَانَ كَذِي الْمَوْتَلِ  
 حَارٍ وَعَقَّتْ مُزَنَهُ الرِّيحُ وَأَنَّ      قَارِبَهُ الْعَرَضُ وَلَمْ يُشْمَلِ  
 مُسْتَدْبِرًا يَزْعَبُ قُدَامَهُ      يَرْمِي بِعَمِّ السَّمْرِ الْأَطْوَلِ (١)

وكانوا في الجاهلية إذا حُبِسَتْ عنهم الأمطارُ، واشتدَّ عليهم الجَدْبُ، يقومون بالاستسقاء، وقد صورَ الجاحظُ طريقتهم التي كانوا يستسقون بها، وهي توضُّح ما شاعَ بينهم من الأساطير حيث يقول: كانوا إذا تتابعت عليهم الأزْمامُ، وركدَ عليهم البلاءُ، واشتدَّ الجَدْبُ، واحتاجوا إلى الاستمطار، اجتمعوا وجمعوا ما قَدَرُوا عليه من البقر ثم عقدوا في أذنانها وبين عراقبيها، السَّلْعَ والعُشْرَ (٢) ثم صعَدوا بها في جبلٍ وعَرَّ، وأشعلوا فيها النيران، وضجوا بالدعاء والتضرع، فكانوا يرون أن ذلكَ من أسباب السُّقْيَا (٣).

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/ ١٢٥٤ كَلِيلٌ: بَرْقٌ ضعيف، على أسماء، أي: من نحو دارِ أسماء، مُخِيلٌ، أي: مُخِيلٌ للمطر، من ذِي صُبْرٍ، أي: من سحابِ ذِي صُبْرٍ وهو جمع صُبْرٍ، وهو الغيم الأبيض، العَيْقَةُ: ساحة من ساحات البر والبحر، والجوف: العظام الكثيرة الأخذ، والورْه: المتساقط، والرَبَابُ: السحاب، التَطُّ: سَتْرٌ، وشُؤْبُوبُهُ: مَطْرَةٌ ودَفْعَةٌ شديدة، وبُرْقَةُ الأجول: موضع، والأسْدَفُ: الأسود، ومُنْشَقٌّ عَرَاهُ، أي: من كثرة الماء، وعَرَاه: نواحيه، المَوْتَلُ: الملجأ من هذا المطر، والأدمات: جمع دَمَتْ وهو المكان السَّهْلُ الذي ليس بمرتفع، حار: تحيّر وتردّد، وعَقَّتْ: شقت الرِّيحُ سحابه، وأنقار: قُطِعَ، وَيَزْعَبُ: يمضي ويتدافع، وقُدَامَهُ: أمامه، والعَمُّ: مثل العميم، الطَّوَالُ، والسَّمْرُ: شجر طوَالٍ وله شوك صغار، يعني أن السيل قلع الشجر ومضى به قدماً.

(٢) السَّلْعُ بالتحريك، والعُشْرُ بضم ففتح: ضربان من الشجر، كان العرب يأخذون حطبهما للغرض الذي ذكره الجاحظ.

(٣) الحيوان للجاحظ ٤: ٤٦٦.

وكانت مصادر الثروات عندهم تعتمد على الحيوان من الآبال والأغنام والخيول وما إلى ذلك، فكانوا يتخذون من الإبل والغنم والمعز موارد رزقهم، ووسائل حياتهم ومعيشتهم، يأكلون لحومها، ويشربون ألبانها، ويتخذ البدو من أصوافها وأوبارها وأشعارها مساكن لهم، تقيهم الحر والبرد، وكثيراً ما كانوا يعتمدون عليها في أثاث بيوتهم وأمتعتهم، وكانت ثروة البدوي تقدر بعدد ما يملك من الإبل والأنعام، لأنها موارد رزقه، ومصادر ثروته، فهي تدرك له الحليب وتعطيه اللحم، وتحمله إلى حيث يشاء في أسفاره وتنقلاته.

فكان الجمل يتحمل مشاق الصحراء، ولا يرهقه العطش أو الجوع أو ما يحمله من أثقال، فهو رفيقهم المفضل الذي يوافقهم فعلاً، ولذلك طالما أشادوا به في أشعارهم، هذا إلى أنه كان عوناً لهم في الحرب، كما كان عوناً لهم في السلم، فلا عجب أن يحبه العربي حباً شديداً، ويفضله على سائر الحيوان.

ويروي ابن قتيبة أنه "أدخل أعرابي على كسرى ليتعجب من جفائه وجهله، فقال له: أي شيء أطيب لحماً؟ قال: الجمل، قال: فأبي شيء أبعث صوتاً؟ قال: الجمل، قال: فأبي شيء أنهض بالحمل الثقيل؟ قال: الجمل، قال كسرى: كيف يكون لحم الجمل أطيب من البط والدجاج والفراخ والدراج<sup>(١)</sup> والحداء؟ قال: يطبخ لحم الجمل بماء وملح، ويطبخ ما ذكرت بماء وملح حتى يعرف فضل ما بين الطعمين، قال: كيف يكون الجمل أبعث صوتاً ونحن نسمع الصوت من الكركي<sup>(٢)</sup> من كذا وكذا ميلاً؟ قال الأعرابي: ضع الكركي في مكان الجمل، وضع الجمل في مكان الكركي حتى تعرف أيهما أبعث صوتاً. قال كسرى: كيف تزعم أن الجمل أحمل للحمل الثقيل والفيل يحمل كذا وكذا رطلاً؟ قال: ليبرك الفيل ويبرك الجمل، وليحمل على الفيل حمل الجمل فإن نهض به فهو أحمل للأثقال<sup>(٣)</sup>.

وكانت الخيل عوناً لهم في السلم وفي الحرب كذلك، يصيدون بها الوحش من الحيوان للغذاء، ثم يغزون بها ويقاتلون الأعداء، ولذلك لا عجب أن تقدر ثروة

(١) الدراج: طائر يطلق على الذكر والأنثى جميل المنظر ملون الريش.

(٢) الكركي: طائر من الإوز أبتسر الذنب رمادي اللون في خده لمعات سود قليل اللحم صلب العظم يأوى إلى الماء أحياناً.

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة ٣/١٩٩.

الواحد منهم بقدر ما يملك من هذه الحيوانات، لا سيما الإبل والخيل التي كانت لهما قيمة عظيمة في نظرهم، فكان العربيُّ يميلُ إلى الإكثار منهما ومن غيرهما من المواشي، حيث يتعهدها بالتربية والرعاية، ومن ثم يتكوّنُ مركزه الاقتصادي بين قومه وبني جلدته.

وكان الغزو والإغارة والسلب والنهب مصدراً أساسياً من مصادر الحياة عند بعض العرب، وخاصة جماعة الصعاليك، الذين جعلوا أرزاقهم في رماحهم، ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم، هذا إلى جانب أن بعض القبائل التي استشعرت المنعة في نفسها، والعزة بأبنائها، اندفعت وراء القبائل الضعيفة تُغيرُ عليها، وتسلُبُ أموالها وتسبي نساءها، وتأسرُ رجالها، وتقوم القبيلة الأخرى بأخذ ثأرها، وردّ شرفها، وقد تستمرُّ الحربُ شهوراً وسنوات، وتكاد تأتي على الزرع والضرع، وتعطلُّ مسيرة قافلة الحياة، فكانت هذه الحياة الحربية من بعض وجوهها مصدراً من مصادر الرزق حيث كانوا يتخذون الغزو وسيلة من وسائل عيشهم، وهو عيشٌ مشوبٌ بالضنك والشطّاف، ولذلك كانوا في صراع عنيفٍ يخوضونه ضد مخاطر الصحراء، ومن يترصدّهم من الأعداء.

وكانت هذه حياة الصعاليك، فهم يقطعون مفازة في النهار، فإذا جنّهم الليلُ وجدّتهم في مفازة أخرى، وقد ركبوا ظهور المهالك والصعاب، لا يستصحبون رفيقاً غالباً سوى أرجلهم التي تعودت العدو السريع، وهم دائماً مُفزَعون حتى في النوم، فإذا ناموا لم ينم قلبهم، لأنهم - دائماً - مُروَعون من عدوِّ راصدٍ أو وحشٍ شاردٍ أو إنسانٍ حاقدٍ، بل إن النوم لا يكاد يلمُّ بعيونهم إلا غراراً، لأنهم - أبداً - يواجهون الصعوبات والمخاطر، وعلى هذه الشاكلة هم دائماً مستوحشون، بل إنهم ليؤثرون الوحشة ويستحبونها إذ يرون فيها الأُنس، فأنسهم في التفرد بالفلوات والقفار التي تمرّسوا بها، وعرفوا مسالكها ودروبها معرفةً تجعلهم لا يضلّون قصدهم كما لا تضلُّ الشمسُ قصدَها، بل يهتدون دائماً إليه<sup>(١)</sup>.

وكان صيدُ الحيوان الشغل الشاغل لكثيرين منهم، وكانوا يدرّبون الكلاب عليه حتى تصبح من الجوان الفاتكة، وفي أشعارهم قطعٌ كثيرة تصفُ المارك التي تنشبُ بينها وبين الأُتن وحمارها أو البقر وثورها، على نحو ما فعل أبو ذؤيب في عينيته المشهورة، أو غيره من الشعراء الجاهليين الذين وصفوا الصيدَ وجالوا في هذا الميدان.

(١) انظر العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ص ٧٩.

فكان حيوان الصحراء من حُمُرٍ وأُتُنٍ وبقيرٍ وثيرانٍ وغيرِها، من أنواع الحيوان مصدرًا من مصادر رزقِهِم، فاعتمدَ عليه بعضهم، حيث كانوا يصطادون الوحشَ فيقتلونهُ ويشوون لحمه، ويتخذون منه غذاءً شهياً، غير أن هذه الجماعة التي كانت تعتمد على الصيد كانت فقيرةً فقراً مُدَقَّعاً، فلم يكن صيدُ الوحشِ هَمَّ شجعانِهِم وفرسانِهِم، وإنما كان هَمَّ فقرائِهِم ومُعوزيهِم، ولذلك كان يأتي في المرتبة الثانية من (غايات) غزوهم ونَهْبِهِم اللذين يدلان على بطولتِهِم واستبسالِهِم<sup>(١)</sup>.

أما الزراعة فقد عرفت في الجنوب والشرق وواحات الحجاز مثل يثرب وخيبر وفي الطائف ووادي القُرى<sup>(٢)</sup>. ويلاحظ أن العربي نَفَرَ من الزراعة والصناعة، وكأنه رأى فيها تقييداً لحريته، وهداً من حركته، ولذلك لم تزدهر الزراعة ولا الصناعة في بلاد العرب بصفة عامّة، وهم لا يزالون يحتقرون الصناعة، ولا يزالون يعدّونها من المهن الخسيسة التي تحطُّ من قَدْرِ صاحبِها، وإذا أرادوا تحقيرَ إنسانٍ وسبّه بكلمةٍ تكون مجمعَ السبَابِ قالوا له: يا ابن الصانع!<sup>(٣)</sup>.

وهذا عمرو بن كلثوم يُعيرُ النعمانَ بنَ المنذرِ بأن أمّه من أسرةٍ كانت تشتغل بالصناعة فيقول:

لَحَا اللهُ أَدْنَانَا إِلَى اللُّومِ زُلْفَةً      وَأَلْمَنَا خَالاً وَأَعْجَزَنَا أَبَا  
وَأَجْدَرْنَا أَنْ يَنْفُخَ الكِيرَ خَالَهُ      يَصُوغُ القُرُوطَ وَالشُّنُوفَ بِيْشْرِيَا<sup>(٤)</sup>

وقد أنفَ البدويُّ من الاشتغال بالزراعة لأنه لم يفكر في الاشتغال بموردٍ ثابت يربطه بمكان لا يبرحه طولَ حياتِهِ، لأنه طُبِعَ على حُبِّ التنقل والترحال هنا وهناك في الكون الفسيح الأرجاء، وتركوا ذلكَ لغيرهم ممن كانوا يعتبرونهم أقلَّ منهم، ولم يَقمُ بها غالباً إلا الفقراء من أهل الحضرة والعبيد والأجراء واليهود، وكان مبدأ العربي "الذُلُّ بالحراث، والمهانةُ بالبقر، والعزُّ بالإبل، والشجاعةُ بالخيل"<sup>(٥)</sup>.

(١) المرجع السابق ص ٨٠.

(٢) المرجع نفسه ص ٧٦.

(٣) جزيرة العرب في القرن العشرين للأستاذ حافظ وهبة ص ١٣٧ ط ٣ النهضة المصرية.

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ١/ ٨٢.

(٥) تاريخ الأدب العربي للدكتور بلا شير، وترجمة الدكتور إبراهيم الكيلاني ص ٣٣ دمشق سنة

ولهذا تَمَسَّكُوا بالصحراءِ وعاشوا بين أفنائها الواسعة، تحت سقوف خيامهم وبين حيواناتهم، يتنفسون من هوائها العذب، ونسيمها العليل، الذي يحمل بين هبويه وحركاته السحرية الكاملة، والسيادة المطلقة، فيغذي أرواحهم المتعشقة للانطلاق، والمطبوعة على الأنفة من الحدود والقيود.

وهذيلٌ كانت من القبائل العربية في الجاهلية، وكانت معيشة العرب آنذاك متقاربة إلى حد كبير، فلم تكد تميز عن غيرها في نوع الحياة بالشيء الكثير اللهم إلا ما شاع عنها من كثرة صعاليكها وذؤبانها، ثم شهرتها بتربية النحل واشتبار العسل. كما سيأتي - فحياة العرب في الجاهلية متقاربة، وموارد أرزاقهم متشابهة.

يقول الدكتور شوقي ضيف: " كانت معيشتهم بين صيد للوحش وصيد للإنسان، ورعي للأغنام والأغنام، فتلک موارد رزقهم، وليس معنى ذلك أنهم كانوا متساوين في هذا الرزق، فقد كان في كل قبيلة السادة الذين يملكون معات الإبل، والفقراء الذين لا يملكون شيئاً، وتحوّل كثير من هؤلاء الفقراء إلى قُطَاع للطُّرُق، يسلبون وينهبون ويقتلون على نحو ما هو معروف عن تأبط شراً والشنفرى وأضرابهما، وما كان يقوم به هؤلاء الذؤبان أو الصعاليك كانت تقوم به القبائل برمتها أحياناً حين تكف السماء عنهم غيثها، وتجدب ديارهم وتمحل، فلا يكون أمامهم سوى الغزو وشن الغارات، ولعل ذلك هو الذي دفعهم دفعا إلى الإشادة بالكرم والكرماء، وقد أشادوا طويلاً بهذه الفضيلة... وهي إشادة طبيعية<sup>(١)</sup> في هذه الصحراء المقفرة المهلكة، التي يحفُّ بها المحلُّ والجذب من كل جانب"<sup>(٢)</sup>.

ولم يُعرف عن هذيل شهرة في التجارة أو الزراعة أو الصناعة، والسبب في ذلك أنها قبيلة بادية، عاشت حياة البادية، بما فيها من رعي للآبال والأغنام، وما فيها من الغزو والغارات، وما فيها من الصيد لأنواع الحيوان ونحو ذلك، فهم كغالبية العرب من البدو الذين عاشوا على الرعي... الذي هو أهم مصدر من مصادر ثروتهم ثم الصيد والسلب والنهب والإغارة وما إلى ذلك.

(١) كذا - وهو خطأ صوابه: طبيعية.

(٢) العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ص ٨١.

ويقول الدكتور أحمد كمال زكي: " إنَّ تجارة الحجاز لم تكن في يد هذيل وإنما كانت في يد أهل يثرب وخيبر ومكة... والواقع أن هذيلاً لم تستطع أن تقف بتجارة أمام هاتين القوتين الهائلتين: قوة اليهود وقوة قريش، ومن هنا نستبعد أن يكون لها حظُّ الاشتغال بالتجارة، اللهمَّ إلا إذا كانت تقنع بتبادل محدود تقوم به في الأسواق التي تقع على الطرق التجارية، أو في الأسواق الكبرى كعكاظ ومجنة وذو الحجاز والأخيرة كانت لها.

فإذا كنَّا نقرُّ أن بعض عناصر من هذيل كانت حياتها الاقتصادية تتصل بحركة التجارة، وتشارك فيها حسب طاقتها المادية، وتأخذ في ذلك سبيلاً مشروعاً، فإننا نجد عناصر أخرى منها تتنكب هذا السبيل، وتجعل صلتها بهذه الحركة صلة عدا، لأنها لم تكن تجد ما تبادل به سوى الغدر... ثم تعود ظافرة.

كانت هذيلُ إذن متأخرة دائماً عن القافلة، وكان هؤلاء الذين ينشطون للتجارة يَكُونون طبقةً خاملةً في جملتها، تعيش مع غيرها في شعاب مكة وأطرافها البعيدة، وتسكن بيوتاً حقيرة، وتعاني جوعاً ملحاً، وكذا يمكن أن نقول: إن اختلال التوازن الاقتصادي القائم على التجارة أضرب بهذه الطبقة من هذيل، وهياً لكثيرين منها حياة شاذة<sup>(١)</sup>.

وقامت حياة هذيل كجمهور العرب الذين قامت حياتهم على الرعي، واعتمدت حياتهم وحياة آبالهم وأنعامهم على الكلاء والماء، فكانوا يتتبعون مساقط المطر ويتنقلون لمواطن العشب، وذكر ابن خلدون أن هذيلاً وغيرها من القبائل كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع<sup>(٢)</sup>، ولذلك كانوا يتنقلون وراء الكلاء والماء هنا وهناك، وكان تنقلهم وراء الغيث والكلاء ينتج عنه الكثير من المشاكل والمخاطر، فيروى أن رجلين من بني لحيان من هذيل، هما جنيذب وأبو المورق، كانا يسكنان سرفاً والحرم لا يخرجان منه، وحدث أن أبا المورق أحس من بني ليث بن بكر تنكراً أو غدراً فقال لأخيه جنيذب، اخرج بنا من وسط بني بكر، فإني والله لقد رأيت شأن قوم يريدون بنا غدراً، فقال جنيذب: والله ما علينا من بأس، وإنما لفي الحرم، وما أنا بخارج منه. قال: لكني والله لأفارقنه عجبلاً، ولأذهبني إلى قومي.

(١) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص ٧٩.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٩.

فخرج أبو المورق إلى قومه، وقعد جُنَيْدٌ جاراً لدارٍ من بني ليث، يقال لهم بنو شجع بن عامر بن ليث وحدث أن غَيْثاً وقع بالمُعَمَسِ وراء الحرم بأميال، فقالوا لَجُنَيْدٍ: اخرج معنا إلى هذا الغيث، فقال: والله إني لأكره أن أخرج من الحرم وأخشى أن أُعْرَى، وليس معي أحدٌ من قومي، فقالوا: أَمَعْنَا تخاف؟ والله ما عليك منا بأسٌ ما بقي منا أحدٌ، فخرج معهم حتى دخل المُعَمَسَ، فأغاروا عليه وقتلوه وأخذوا ماله، فلما بلغ ذلك أبا المورق قال:

ألا يا مَنِيٍّ لِمَ غَرَرْتَ جُنَيْدِيًّا	وأَحَلَّتْهِ عَلَيَّ لَثِيمٌ مُذَمَّمٌ
وَجَنَّبْتَهُ كَلْبًا وَكَعْبَ بْنَ عَامِرٍ	وَحَلَّ عَلَيَّ بِأَدْيِ الْمَفَاقِرِ مُعَدِمٌ
لَعَمْرُكَ مَا جَاوَرْتَ فِي رَهْطِ مَعْبِدِ بْنِ	بِنِ صَخْرٍ وَلَا جَاوَرْتَ رَهْطَ ابْنِ جُعْشَمٍ
وَلَكِنْ بَنِي السُّكْرَانِ أَوْلَادَ جَثَلَةٍ	تَعُودُ لِمَا أَلْقَتْ مِنَ السَّهِّ فِي الْفَمِ (١)

فكانوا يتنقلون وراء الكلاً والعشيب، فيرتحلون وينتشرون طلباً للرزق حتى إن بعضهم كان يواجه الصعوبات أحياناً في سبيل ذلك، وقد يواجه القتل، كما تروي الأخبار أن أبا المورق وصاحباً له كانا قد انتجعا سرفاً، وحدث أن أخصبت بلادهما فمضى أبو المورق إلى بلده، وأقام الآخر بسرف، ثم أتاه رجلان من بكر ومن بني شجع ينزلان المُعَمَسَ، فدعياه (٢) أن ينطلقَ معهما إلى منزلهما في المُعَمَسِ لأنه مُخَصَّبٌ فانطلقَ معهما، فلما قدما المُعَمَسَ قتلاه وأخذوا ماله، فقال أبو المورق:

تَرَكْتُ الْعَادَ مَقْلِيًّا ذَمِيمًا	إِلَى سَرْفٍ وَأَجْدَدْتُ الذَّهَابَا
وَكُنْتُ إِذَا سَلَكَتُ نَجَادَ أَرْضٍ	رَأَيْتُ عَلَيَّ مَرَاقِبَهَا الذُّبَابَا
إِذَا نَزَلْتُ بَنُو لَيْثٍ عُكَاطًا	رَأَيْتَ عَلَيَّ رُؤُوسِهِمُ الْغُرَابَا
غَدَرْتُمْ غَدْرَةً فَضَحَتْ أَبَاكُمْ	وَتَبَّتْ الْمُعَمَسَ وَالظَّرَابَا

(١) كتاب شرح - أشعار الهذليين ٢/٧٧٧ يا مَنِيٍّ: أراد يا مَنِيَّةَ فَرَحَمٌ، لثيمٌ: يعني الرجل الذي كان في جواره، كلبٌ وكعبٌ بن عامر: من كنانة، المفاقر: جمع فقر على غير قياس، ومُعَدِمٌ: فقير، معبدٌ بن صخر: من بني ضَمْرَةَ من كنانة، ابن جُعْشَمٍ: من بني مُدَلِجٍ من كنانة كذلك، جثلة: أمة، ويقال إن أمه يقال لها جثلة، السه: بالهاء الأصلية وهاء التانيث.  
(٢) دعياه: لغة في دعواه.. دَعَيْتُ ودَعَوْتُ.

## وَلَوْ جَاوَرْتُمُوهُ فِي هُدَيْلٍ لَرَدَّكُمْ وَأَمَّكُمْ الْعُنَابَا (١)

وكان المرعى عندهم من الأهمية بمكان، وكان عليهم أن يتضامنوا لحراسة مراعيهم، وأن يتعاونوا على حماية ما يملكون من إبل وماشية فلا شك أن المرعى كان مصدراً لأنعام القبيلة وآبالها، تسرح فيه وتمرح، وترعى بين أفئاته، ولذلك كان المرعى الخصب مجالاً للتنافس، ويفتخر أصحابه بملكيتته، وقد تطلب منهم القبائل الأخرى أن يرعوا فيه، كما حدث الحلواني من أن بلاد فهم كانت قد أجدبت حتى تعجفت أموالهم، وخشوا على أنفسهم وعلى أبنائهم الهلاك، وكانت بلاد بني صاهلة من هذيل خصبة، وكانت هذيل وفهم يقتل بعضهم بعضاً، وحدث أن دخل رجب الأصم، وهو من الأشهر الحرم، وكان أهل الجاهلية لا يغيرون فيه ولا يغزون وكانوا ينسؤون سائر الأشهر الحرم، فخرج من فهم ثلاثمائة أو أربعمائة أو زيادة على ذلك من رجالاتهم وأشرافهم، فجاءوا بني صاهلة فقالوا: "يا بني صاهلة، حلت علينا سنة خشيناها على أموالنا وأنفسنا، وبلادكم اليوم خصبة فأرعوننا في بلادكم وآمنونا حتى يقع بأرضنا غيث، فإن الأيام عقب ولعلكم أن تبتغوا إلينا مثل ذلك يوماً من الدهر" فقال رجل من بني صاهلة: استعينوا بالسنة فاقتلوهم ولا ترعوهم فقام رجلان سيدان شريفان من فخذين شتى من هذيل، وهما خويلد بن المحرث ابن الأشيم، وإياس بن الحارث بن المقعد، فرحبا بهم، وهو ما تقتضيه الطبيعة العربية والكرم العربي، وقالوا: "يا معاشر فهم، قد أجرناكم، فارعوا من أرضنا حيث شئتم" فرجعت فهم إلى قومهم، فخرجوا يسرون لا يحلهم إلا الليل، حتى هبطوا حثن، وطلع أكثرهم للوتير، فحلوا على ظر من دفاق وتلك الأودية، فقال شاعر فهم في ذلك واسمه كانف:

لقد فسحت ريعاً قريماً وقومهم  
لنا بعد ما سدوا الطريق وشجعوا  
يريفهم عن كل أمر أرادته  
غلام كنصل السمهريه أروع

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢/ ٧٧٩. عاد: بلد، النجاد: ما غلظ من الأرض، مراقبها: أعلام تقوم فوقها الحراس، بنو ليث: من كنانة، كان على رؤوسهم الغراب: من سكنهم لذئهم واستحيائهم من غدرهم، المغمس: موضع بمكة والظرب: أصغر الجبال، العناب: البظراء، ويقال إن العناب اسمها.

إِيَّاسٌ وَإِنْ تَذَكَّرْ إِيَّاساً فَإِنَّهُ  
يُؤَاتِيكَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ أَرْفَعُ  
وَنِعْمَ الْفَتَى يَوْمَ التَّقِينَا خُوَيْلِدٌ  
وَعِرْقُ زُبَيْدٍ فَهُوَ فِي الْمَجْدِ مُتَلَعٌ (١)

فنرى أن أعداءهم من فُهِم طلبوا منهم أن يرعوا بلادهم، ومررنا كيف أنه كان بينهم وبين فُهِم الكثير من الأيام والغارات .

وكان للإبل أهمية كبرى عند العرب، فالجمل أفضل حيوان أهلي عندهم، فلا تُقَطَّع الباديةُ بغيره، وهو لقناعته وقوته واحتماله المشاق، وصبره على العطش أياماً لا يقوم مقامه حيوان آخر في الركوب وحمل الأثقال (٢)، فلا شك أنه أنفع الحيوانات لهم، وأنه يستطيع أن يجوب البادية ويتنقل فيها بسرعة فائقة، ولذلك كانت الإبل تحتل مكانة ممتازة عندهم، وكانت مجالاً للطمع حتى بين أفراد قبيلة هذيل أنفسهم، فيطمع بعضهم فيما بأيدي بني عمومته من الإبل، فيعتدون عليهم طمعاً في مالهم وآبالهم . فيروى أن رجلاً من هذيل بادأ أهله وهلكوا فحاز مواريتهم، ثم سار بها حتى جاور بني مؤمل وهم حي من هذيل، وكان الرجل في عَدَد وثروة، فجعلوا يظلمونه ويغنون عليه في ماله، وأخذ يناشدهم الله عز وجل وهم لا يرعون، وكان فيهم رجل يقال له رباح، لما رأى ما يصنع قومه بجارهم قال لهم: " يا قوم إن هذا لا يحلُّ لكم في دينكم، ولا يجملُّ بكم في أعراضكم، فأنزعوا عن ظلم جاركم وابن عمكم " فأبوا ذلك ورفضوا، فأمهلهم الرجل حتى دخل الشهر الحرام، ونزل الناس عكاظ، فقام قائماً فبهلهم ودعا عليهم فقال:

يَارِبُ أَشْقَانِي بَنُو مُؤْمَلٍ  
فَأرْمِ عَلَيَّ قَفَانِهِمْ بِمَنْكِلٍ  
بِصَخْرَةٍ أَوْ عَرْضِ جَيْشِ جَحْفَلٍ  
إِلَّا رِيحاً إِنَّهُ لَمْ يَفْعَلِ (٣)

(١) المرجع السابق ٨٥٧/٢ فَسَحَتْ: أَوْسَعَتْ، وَشَجَعُوا: كَرَّهُوا وَكَلَّحُوا، يُرِيغُهُمْ: يَطْلُبُ ذَلِكَ، يُقَالُ إِنَّهُ لِيُرِيغَ حَاجَةً إِذَا كَانَ فِي طَلِبِهَا، وَزُبَيْدٌ: رَهْطُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، مُتَلَعٌ: مُشْرِفٌ.

(٢) حضارة العرب - جوستاف لوبون ص ٤٤ .

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢/٩٠٤ .

فاستجاب الله دعاءه، وضرب الدهر ضربته، وحدث أن أقبلوا حتى نزلوا شعباً من شعاب نجد فضربوا به الأخبية، فبينما هم مطمئنون، إذ قض الله عز وجل عليهم صخرة من سواء الجبل في الليل، فجعلت تقض الحجارة، وجعلت الحجارة يقض بعضها بعضاً حتى مرت بأبياتهم فأرمدتهم، إلا خباء رياح لم يدن منه أي حجر!

ولعل مما يبين مكانة الإبل عندهم ما روي من أن أبا خراش كان لا يثور ولا يغضب عندما يعلم أن أخاه عروة يغزوه ليلاً فيأخذ شاة من شائه، ولكنه يثور ويغضب حين يعلم أنه أخذ إحدى ثوقه.

يقول صاحب الأغاني: " فبينما أبو خراش ذات يوم في بيته إذ جاءه عبده له فقال: إن أخاك عروة جاءني، وأخذ شاة من غنمك فذبحها، ولطمني لما منعتة منها، فقال له: دعه، فلما كان بعد أيام عاد فقال له: قد أخذ أخرى فذبحها، فقال: دعه فلما أمسى قال له: إن أخاك اجتمع مع شرب من قومه فلما انتشى جاء ليأخذ ناقة من إبلك لينحرها لهم، فعاجله، فوثب أبو خراش إليه، فوجده قد أخذ الناقة لينحرها فطردها أبو خراش، فوثب أخوه عروة إليه فلطم وجهه، وأخذ الناقة فعقرها وانصرف أبو خراش" (١).

وهذا أبو جندب الذي جاور بني نفاثة بن عدي بن الدليل حيناً من الدهر وكانت له إبل كثيرة، ثم أحس أن القوم يريدون الغدر به، لما كان من وطأة بني لحيان عليهم، وكان مع أبي جندب أخوه جناد، فاتفق أبو جندب مع أخيه على الهرب وقال له: " اسرح مع نعم القوم، ثم توقف وتأخر حتى تمر عليك النعم كلها وأنت في آخرها سارح بإبلك، واركها في المرعى، فإذا غابوا عنك فاجمع إبلك واطردها نحو أرضنا" (٢). وأخذ أبو جندب دلوه، وورد مع الرجال، واتخذ القوم الحياض، واتخذ أبو جندب حوضاً فملاه ماءً، وقعد عنده، فمرت به إبل ثم إبل، حتى إذا ورد آخر النعم وآخر الظعن ولم ير أخاه، قال: والله لقد حبس أهلي حابس، ثم طرح دلوه على الحوض، ثم ولي حتى أدرك أخاه بحيث وعده، وهربا بالإبل (٣).

(١) الأغاني ج ٢١ ص ٢٤٠.

(٢) الأغاني ٢١/٢٤٨.

(٣) المرجع السابق ج ٢١ ص ٢٤٨، وانظر كتاب شرح أشعار الهذليين ١/٣٦٢.

وكانت هذيل تعتبر الإبل مَحَطَّ نظيرها، ومنتهى آمالها، فكانوا يمتلكونها ويحرصون عليها، وينحرونها للضيغان، وخاصة إذا أمحل الناس وأجدبوا في سني الجفاف، والقحط كما قال أبو ذؤيب:

فإنك لو ساءلتِ عنا فَتُخْبِرِي      إذا البزلُ راحت لا تدرُ عِشارُها  
لأنبئتِ أنا نَجْتَدِي الفضلَ إنما      يُكَلِّفُه من النفوس خِيارُها  
لنا صِرْمٌ يُنْحَرَنَ في كلِّ شَتْوَةٍ      إذا ما سماءُ الناسِ قَلَّ قَطَارُها (١)

فأبو ذؤيب يفتخر بنحر الناقة العُشراء، وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر، فإذا وضعت بقي هذا الاسم عليها، وهي عند العرب من أعز الإبل، وكان ذبحها للضيغان يعتبر غاية في الجود والإكرام، هذا إذا علمنا أن لحوم الإبل كانت من أحسن اللحوم عند العرب فلا يُفضلون شيئاً عليها (٢).

ويبدو أن الذئب كانت تهدد أغنامهم وشاءهم في البادية، فهذا عمرو ذو الكلب يصف في أرجوزة له ذئباً جائعاً، ويرسم له صورة دقيقة فيتحدث عن الغنم وعن الذئب الذي جاء مسرعاً من علاوة الريح... يقول:

يا ليتَ شِعْرِي عنكَ والأمرُ عَمَمٌ  
هل جاءَ كعبُ عنكَ من بينِ النَّسَمِ  
ما صنعَ اليومَ أُويسُ في الغنمِ  
صُبَّ لها في الرِّيحِ مِرْيَحُ أشم

ثم يصف الذئب واختياره من الغنم لُجْبَه (٣) وهي التي أتت عليها أربعة أشهرٍ من ولادها فحفَّ لبنُها... فيقول:

- 
- (١) ديوان الهذليين ١/ ٢٦. عشارها: حديثة النتاج منها، نجتدي: نطلب، صِرْم: قطع إبل، الواحدة صِرْمَة، وهي ما بين العشر إلى العشرين، قطارها: أمطارها.  
(٢) بلوغ الأرب للأوسي ج١ ص ٣٨٠.  
(٣) مثلثة اللام - كالجِبَّة بفتح اللام وكسرهما، واللَّجِبَة .. بفتح فكسر.

فَاعْتَامَ مِنْهَا لَجْبَةً غَيْرَ قَزَمٍ  
 حَاشِكَةَ الدَّرَّةِ وَرَهَاءَ الرَّحْمِ  
 فَجِئْتُ لَا يَشْتَدُّ شَدْيِي ذُو قَدَمٍ  
 وَفِي الشَّمَالِ سَمْحَةٌ مِنَ النَّشَمِ

ونراه في آخر أرجوزته يُقسِم على قَتْلِهِ فيقول: لعن رميت هذا الذئب من بعيدٍ أو قريبٍ لأقتلنه، فنراه يقول:

قَد كُنْتُ أَفْسَمْتُ فَتَنَيْتُ الْقَسَمَ  
 لَعْنُ نَأَيْتُ أَوْ رَمَيْتُ مِنْ أُمَّمٍ  
 لِأَخْضِبِينَ بَعْضَكَ مِنْ بَعْضِ يَدَمٍ<sup>(١)</sup>

وكانت هذيل تمتلك الخيل، ولكن يبدو أن الخيل كانت قليلةً عندهم، يقول الأصمعي: "إنهم كانوا أصحاب جمال وكانوا يُغيرون رجالة لم تكن لهم خيل"<sup>(٢)</sup> وذكر السُّكْرِيُّ أَنَّ هذيلاً ليسوا بأصحاب دوابٍ إنما هم رجالة<sup>(٣)</sup>. فكانوا يمتلكونها لا سيما الأغنياء منهم، وقد وصفها شعراؤهم، إلا أنه يبدو أن الخيل كانت قليلةً عندهم بالنسبة إلى غيرها من صنوف الحيوان. ولعل سبب ذلك أن الخيل على عكس الجمل الذي يمكن تربيته في كل مكان، فهي لا تنشأ إلا في البقاع الخصبة كسهول العراق وسورية ونجد، وفي نجدٍ وحدها أعزُّ الخيول العربية وأرشفها<sup>(٤)</sup>.

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٥٧٥/٢ عمم: عام، النَّسَم: النَّاس، أُويس: الذئب ويسمى أوساً كذلك، مَرِيح: من المَرَح، وفي الريح: يقول جاء من علاوة الريح، وإذا كانت الريح معه فهو أسرع له، اعتام الذئب: اختار من الغنم، لَجْبَةٌ: هي التي أتى عليها من ولادها أربعة أشهر فحُفَّ لبنها، القَزَم: اللثيم من كل شيء، حاشكة: حافل، ورهاء: كأنها مجنونة، الرَّحْم: المحببة فإذا أحببت ولدها فكانها مجنونة من شدة حبها له، أو رميت من أمم، أي: من قصد، والأمم أيضاً: القرب، يقول: ما كان غير بعيد ولا قريب فهو بين ذلك.

(٢) ديوان الهذليين ١٧/١.

(٣) المرجع السابق ٧٦/٢.

(٤) حضارة العرب - جوستاف لوبون ص ٤٥.

والحق أن هذَيْلاً كانت تمتلك الإبل ولو أن ذلك لم يكن على مدى واسع، وبعبارة أدق لم تكن الخيل شائعة عندهم يمتلكها كل فرد من أفرادهم، فكان امتلاك الخيل مقصوداً على الأغنياء والقادرين منهم، فالحقائق كلها تقر أن هذَيْلاً لم تكن تهتم بالخيل اهتمامها بالإبل، وفي نظري أن هذا راجع إلى شيئين، هما أن منطقة هذَيْل لم تكن صالحة في جملتها لتربيتها، لأنها جرداء صلبة مُجْدِبَةٌ، والخيل لا تكون إلا حيث الخصب وسهولة الأرض كما في نجد والجوف، وأن الخيل لم يكن يقتنيها سوى الأغنياء، فكان الجواد الواحد يعدل خمساً وعشرين ناقةً ويحتاج دائماً إلى الماء الكثير، وذلك ما يحول دون اقتناء الهذلي له... إلا أن هذا لا يعني مطلقاً جهلهم بها أو عدم اقتنائهم لها، لا سيما الأغنياء منهم<sup>(١)</sup>.

ونستطيع أن نستدل على امتلاكهم للخيل واعتزازهم بها - بما روي من أنهم كانوا في الجاهلية يقولون في تلبيتهم إذا حجوا:

لَبَّيْكَ عَنْ هُذَيْلٍ قَدْ أَوْلَجُوا بَيْلٍ

فِي إِبِلٍ وَخَيْلٍ<sup>(٢)</sup>

ففي ذلك دليل على امتلاكهم للخيل، ومكانتها عندهم، وقد وصفها شعراؤهم وصفاً جيداً، فهذا ساعدة بن جُوَيْه يصف الخيل السريعة عند قومه، ويصف الخيل وشدتها، وكيف أن الفرس يهتز لرشاقتة وخفته... يقول:

مِنْ كُلِّ فِجٍّ تَسْتَقِيمُ طِمْرَةٌ	شَوْهَاءُ أَوْ عَيْلُ الْجُزَارَةِ مِنْهَبٌ
خَاطِي الْبَضِيعِ لَهُ زَوَافِرُ عَيْلَةٌ	عُوجٌ وَمَتْنٌ كَالْجَدِيدَةِ سَلْهَبٌ
وَحَوَافِرٌ تَقَعُ الْبَرَّاحُ كَأَنَّمَا	أَلْفَ الزَّمَاعِ بِهَاسِلَامٍ صُلْبٌ
يَهْتَزُّ فِي طَرْفِ الْعِنَانِ كَأَنَّهُ	جَدْعٌ إِذَا فَرَعُ النَّخِيلِ مُشْدَبٌ <sup>(٣)</sup>

(١) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص ٨٤، مع تصرف.

(٢) الأعلام للزركلي ٧٣/٩.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/١١١٦. الفجج: الطريق، الجزارة: القوائم، طمرة: طويلة، الشوهاء من الخيل: المشرفة، منهب: كأنه ينتهب العدو انتهاباً، زوافر عيلة: الزافرة: الوسط يعني أن وسطه ضخم، الجديدة: حبل مجدول من سيور أو شعر أو صوف، خاطي البضيع، أي: ممتلئ اللحم، سلهب: طويل، عيلة: ضخمة، عوج: ضلوع متعطفة، =

وكانت هُذَيْل تعتمد على السُّلْب والنَّهْب مصدرًا من مصادر الثروات، فلم تكن الغارة أو النَّهْب والسُّلْب عيباً عندهم، بل كان كل ذلك يُعتبر من مظاهر الشجاعة في طلب الرِّزْق، ولذلك كان وسيلةً من وسائل الثروات والأرزاق. وكان الغزو طبعاً من طبائع البدو، وعادةً من عاداتهم، فكانت القبائل البدوية تتبادل الإغارة لِقَصْد السُّلْب والنَّهْب، فإذا ما غزت قبيلةً إحدى القبائل الأخرى، وسلَّبت أموالها وأنعامها، تقوم القبيلة الثانية المُعتدى عليها بأخذ ثأرها وردَّ شرفها، فتغزو القبيلة التي اعتدت عليها، وقد تستردُّ مآلها الذي سلب أو تسلب أكثر مما سلب منها إذا حالفها الحظ وهكذا.

ومثال ذلك ما قامت به هُذَيْل من غزو سُلَيْم، وكانت الغارات والغزوات كثيرةً بينهما. ويروى أن بني صاهلة من هُذَيْل خرجوا لغزو بني سُلَيْم بن منصور، وهو بُرْهاطٍ وسُمِّي فوجدوهم بسُمِّي خمسين بيتاً، وخرج رجالٌ من بني سُلَيْم يقعدون لحُمُرٍ بأسفل الوادي الذي هم به، فبيَّتهم بنو صاهلة وأباحوا دارهم، ثم سمع رماة الحُمُر من بني سُلَيْم أنيساً، فقالوا: كأن الدار قد وقَّع فيها عدو! ثم قال بعضهم لبعض: هو حسُّ الحُمُر واردة، فغرَّهم ذلك، حتى انتهوا قُبَيْل الصُّبح وقد خرجت بنو صاهلة بالسُّبِّي من الليل، فأدركهم الطَّلَب من بني سُلَيْم، بقيادة سيدهم كُليِّب بن عَهْمَة، وكانوا قد فرَّعوا من أولِّ الليل وهربوا، إلا أن كُليِّباً جدَّ في طلبهم حتى أدركهم وهو يرتجز:

أنا كُليِّبٌ ومَعِي مِجَنِّي  
بازلُ عامِّين قديم السنِّ  
أضربُ رأسَ البطل المُعتنِّ  
حتى يَمِيطَ في الخِلاءِ عَنِّي (١)

= تقع البراح: تفرُّعه، والسُّلام، أي: الحجارة، أي كأنما أَلَفَ زماعها صخرةً من شدة الحوافر، البراح: المستوي من الأرض، والزُّماع: الشعرات اللاتي يَكُنَّ خلف الحافر، وصلَّب: شداد، يريد أن يقول: كأنما لَزِمَ الزُّماع حجارةً مكان الحافر، إذا فرغ النخيل، أي: إذا علاها، مُشدَّب: مُنقَى.. يقول: يهتَزُّ من حدته.

(١) المرجع السابق ٧٦٩/٢ المُعتنِّ: المعترض، يميِّط: يذهب جانباً، الخلاء: الصحراء الخالية.

وَحَدَّثَ أَنْ قَعَدَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ هُدَيْلٍ فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ، وَرَجَعَ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ عَبْدُ بَنِي حَبِيبٍ شَاعِرُ بَنِي صَاهِلَةَ قَصِيدَةً مَطْلَعُهَا:

أَلَا أَبْلِغُ يَمَانِينَا بِأَنَا قَتَلْنَا أَمْسَ رَجُلٍ بَنِي حَبِيبٍ (١)

وكذلك ما قامت به هُدَيْلٌ مِنْ غَزْوِ خُزَاعَةَ، وَتَجَلَّى فِيهِ طَمَعُهَا فِي غَزْوِ جِيرَانِهَا حَبَابًا فِي السَّلْبِ وَالنَّهْبِ، فَتَرَوَى الْأَخْبَارُ أَنَّ بَنِي سَهْمٍ بَنِ مَعَاوِيَةَ مِنْ هُدَيْلٍ: قَامُوا بِغَزْوِ خُزَاعَةَ بِرِيَاةِ سَيِّدِهِمْ مَعْقِلَ بْنِ خُوَيْلِدٍ، فَأَصَابُوا مِنْهُمْ دَارًا عَظِيمَةً بَلَّفَتْ - وَهِيَ عَقَبَةُ بِطَرِيقِ مَكَّةَ - فَأَخَذُوا مِنْهُمْ نَعْمًا وَسَبِيًّا كَثِيرًا، ثُمَّ ذَهَبُوا يَسُوقُونَ السَّبِيَّ وَالنَّعْمَ حَتَّى وَصَلُوا الرَّجِيعَ وَهُمْ مَطْمَئِنُونَ، ثُمَّ تَغَاوَتْ بَنُو كَعْبٍ مِنْ خُزَاعَةَ، فَخَرَجُوا بِجَمْعٍ عَظِيمٍ، حَتَّى أَدْرَكُوا مَعْقِلًا وَأَصْحَابَهُ بِبَطْنِ الرَّجِيعِ قَدْ أَمْنُوا وَوَضَعُوا السَّلَاحَ، وَهُمْ عَلَى مَاءٍ يَغْتَسِلُونَ، فَعَدَّتْ عَلَيْهِمْ بَنُو كَعْبٍ وَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ مُغْتَرُونَ، فَقَتَلُوا رَجُلَيْنِ يُقَالُ لَهُمَا: الْعَمْرَانِ، ثُمَّ وَثَبُوا عَلَى مَعْقِلٍ وَهُوَ يَغْتَسِلُ، فَوَاطَبَهُمْ مَعْقِلٌ وَقَتَلَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةَ إِخْوَةٍ، بَنِي أَبِي صُرْدٍ، كُلُّهُمْ أَبْطَالٌ، يُعَانِقُهُ هَذَا وَيُضْرِبُهُ هَذَا، ثُمَّ يُعَانِقُهُ هَذَا وَيُضْرِبُهُ هَذَا، حَتَّى وَالَى بَيْنَهُمْ جَمِيعًا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَكَانَ الْقَوْمُ يَقْتَتِلُونَ سِوَى ذَلِكَ.

قال الراوي: "فذلك يومٌ يقولُ الخُزَاعِيُّ: يَا قَوْمَ، أبتِ السِّيُوفُ مَعْقِلًا! وعانقه الآخرُ فقال: اقتلوني ومَعْقِلًا! فارتجعتْ خُزَاعَةُ سَبِيَّهُمْ، وَقَدْ أَصِيبَ نَاسٌ، مِنْهُمْ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ مَعْقِلٌ، وَهُمْ أَنَسٌ وَأُنَيْسٌ، وَخِذَامٌ (٢).

ويظهرُ أَنَّ الدَّائِرَةَ دَارَتْ عَلَى هُدَيْلٍ فِي النِّهَايَةِ، إِذْ أَدْرَكَتَهُمْ خُزَاعَةُ وَهُمْ يَغْتَسِلُونَ، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ عَدَدًا، ثُمَّ اسْتَرَدُّوا سَبِيَّهُمْ وَأَنْعَامَهُمْ، وَيُرْوَى أَنَّ مَعْقِلَ بْنَ خُوَيْلِدٍ قَالَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَيْبَاتًا مِنْهَا:

أَلَا هَلْ أَتَى أَبَا صُرْدٍ مَكْرِيٍّ عَلَى أَنَسٍ وَصَاحِبِهِ خِذَامٍ  
وَلَاءٌ عِنْدَ جَنْبِهِمَا أُنَيْسٌ وَلَمْ أَجْزَعْ مِنَ الْمَوْتِ الزُّوَامِ (٣)

(١) يمانينا: مَنْ كان من هُدَيْلٍ فِي شِقِّ الْيَمَنِ، رَجُلٌ: رَجُلَةٌ.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ١/٣٧٧.

(٣) أَنَسٌ وَخِذَامٌ وَأُنَيْسٌ: أَبْنَاءُ أَبِي صُرْدٍ، وَوَلَاءٌ: أَي مَوَالِدُ، الزُّوَامُ: السَّرِيعُ الشَّدِيدُ.

ولا شك أن الغزو لأجل السلب والنهب ، يتجلى بصورة واضحة عند الصعاليك الذين جعلوا جُلَّ همَّهم في غزو القبائل أو القوافل، فينهبونهم ويسلبونهم، فكانت أرزاقهم في رماحهم، ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم، وقد اشتهرت هذيل بكثرة صعاليكها وذؤبانها على ما سيأتي بيانه في الفصل القادم.

وكان صيد الحيوان في الصحراء مصدراً أساسياً للحياة عند هذيل، فأنواع الحيوان من حمر وأتن وبقر وثيران وغيرها من الحيوانات كانت مصدراً للرزقها، غير أنه يبدو أن الذين اعتمدوا على صيد الحيوان في حياتهم كانوا من الفقراء ، ومن الذين أصابهم الشظفُ والعوزُ وسوء الحال . ويَزخُرُ الشعرُ الهذلي بقطع كثيرة يصف فيها الشعراء مناظر الصيد، وخاصة أشعار أبي ذؤيب وساعدة بن جؤية، وأبي خراش، وصخر الغي وغيرهم من شعراء هذيل، فأشعارهم حافلة بأحاديث الصيد ووصف الحيوان وكيفية اقتناصه، وكثيراً ما تضمنت أشعارهم قصصاً عن الصيد وأحداثه، وهي قصص تحمّل النغم الحزين المؤثر، حيث تصور حال هذه الدنيا الفانية، التي لا يبقى على حدّثانها أحد، وذلك كما فعل أبو ذؤيب في عينيته التي رثى فيها أولاده ، فتكلّم فيها عن صيد الحمار الوحشي والبقر الوحشي، وأتخذ فيها الصيد مادةً للوحته المؤلمة، وقصيدته المحزنة.

ومن المعروف أن وصف الصيد كثير في أشعارهم ، وهذا صخر الغي - على سبيل المثال - يصف وعلاً مُسنأً وكيفية اصطیاده، فيصف الوعل في تيهورة تحت السحاب، وفي موضع مُخصب قد أصابه المطر، واستطاع فيه أن يتمتع بطول الحياة، فشب مع الأيام وطال عمره ، حتى أشرف قرنه وتثنى، وهو يصف الوعل كانساً إذا أبصر الليل، ويشبه مبيته بمبيت رجل كبير عليه كساؤه، قد حارب أهله، أي : عاداهم وتنحى عنهم . . . يقول:

أَعَيْنِي لَا يَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ فَادِرٌ	بَتِيهُورَةٍ تَحْتَ «الطَّخَافِ الْعَصَائِبِ
تَمَلَّى بِهَا طَوْلَ الْحَيَاةِ فَقَرْنُهُ	لَهُ حَيْدٌ أَشْرَافُهَا كَالرُّوَابِجِ
يَبِيتُ إِذَا مَا أَنَسَ اللَّيْلُ كَانِسًا	مَبِيتَ الْكَبِيرِ ذِي الْكِسَاءِ الْمُحَارِبِ
مَبِيتَ الْكَبِيرِ يَشْتَكِي غَيْرَ مُعْتَبٍ	شَفِيفَ عُقُوقٍ مِنْ بَنِيهِ الْأَقْرَابِ
تَدَلَّى عَلَيْهِ مِنْ بَشَامٍ وَأَيْكَةٍ	نَشَاةٍ فُرُوعٍ مُرْتَعِنِ الدُّوَابِ

بها كان طفلاً ثم أسدس واستوى  
فأصبح لهما في لهُوم قَراهِبِ  
يُرْوَعُ مِنْ صَوْتِ الْغَرَابِ فَيَنْتَحِي  
مَسَامَ الصَّخُورِ فَهُوَ أَهْرَبُ هَارِبِ (١)

ثم يحدثنا عن الوعل وقد قَدِرَ له صائدٌ يكسِبُ لأبيه الشيخ الذي اَحْدَوْدَبَ ظهره وتَحَنَّتْ عظامه، ويحدثنا عن أمر الصائد الذي يحمي شيخه من كل أذى، ثم يرسمُ صورةً دقيقةً واضحةً لانتهاه حياة الوعل على أيدي ذلك الصياد الذي رماه بسهمٍ عريضٍ واسع النصل فقتله . يقول :

أُتِيحَ لَهُ يَوْمًا وَقَدْ طَالَ عُمُرُهُ  
جَرِيمَةُ شَيْخٍ قَدْ تَحَنَّبَ سَاغِبِ  
يُحَامِي عَلَيْهِ فِي الشِّتَاءِ إِذَا شَتَا  
وَفِي الصَّيْفِ يَبْغِيهِ الْجَنَا كَالْمُنَاجِبِ  
فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ لِلَّهِ مَنْ رَأَى  
مِنَ الْعُصْمِ شَاةً قَبْلَهُ فِي الْعَوَاقِبِ  
لَوْ أَنَّ كَرِيمِي صِيدَ هَذَا أَعَاشَهُ  
إِلَى أَنْ يَغِيثَ النَّاسِ بَعْضَ الْكُوَاكِبِ  
أَحَاطَ بِهِ حَتَّى رَمَاهُ وَقَدْ دَنَا  
بِأَسْمَرَ مَفْتُوقٍ مِنَ النَّبْلِ صَائِبِ (٢)

واشتهرت قبيلة هذيل بتربية النحل واشتبار العسل، وفي أشعارهم الكثير من المقطعات التي يصفُ بها الشعراء النحلَ وسعيه في الأرض ، بحثاً عن

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ١/٢٤٦ . الفادر: الوعلُ المُسنُّ، التَّيْهُورَةُ: ما اطمأن من الرمل، الطخاف: ما رق من الغيم، العصائب: مُتَقَطَّعٌ عُصْبَةٌ عُصْبَةٌ، تَمَلَّى: تَمَتَّعَ، فَقَرَنَهُ لَهُ حَيْدٌ: هُوَ مَا تَنَامُنُهُ، وَشَبَّهَ قَرْنَهُ بِالرُّوَاكِبِ، وَالرُّوَاكِبِ: مَا تَنَامُنُ أَصُولَ الْأَصَابِعِ إِذَا ضَمَمْتَ كَفْلَكَ، وَحَيْدٌ: جَوَانِبٌ، وَهِيَ دَوَائِرُ فِي الْقَرْنِ وَعُقَدٌ كَذَلِكَ، إِشْرَافُهَا: إِشْرَافُ الْقُرُونِ، غَيْرَ مُعْتَبٍ: لَا يُطَلَّبُ رِضَاهُ لِأَنَّهُمْ اسْتَحَقُّوْا بِهِ، وَالْعُقُوقُ: الْقَطِيعَةُ، الشَّفِيفُ: الْوَجَعُ وَالْأَذَى، مِنْ بِشَامٍ: مِنْ شَجَرٍ، وَالْأَيْكَةُ: الْغَيْضَةُ، وَالنَّشَاةُ: الشَّجَرَةُ الْيَابِسَةُ. مُرْتَعَنٌ: مُسْتَرْخِي، الذَوَائِبُ: الْأَغْصَانُ، أَسْدَسٌ: وَقَعَ سَدِيسُهُ، وَهُوَ السَّنُّ الَّتِي تَلِي الرِّبَاعِيَّةَ، فِي لُهُومٍ، أَي: أَوْعَالَ مَسَانٍ، قَرَاهِبٍ: مَسَانٌ كَذَلِكَ وَالْوَاحِدُ قَرَهَبٌ، فَيَنْتَحِي: يَعْتَمِدُ، لِأَنَّهُ يُرْوَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَسْمَعُهُ، مَسَامَ الصَّخُورِ: مَمَرَهُ فِي الصَّخُورِ.

(٢) أُتِيحَ لَهُ: قُدِرَ لَهُ، جَرِيمَةُ شَيْخٍ: كَاسِبُ شَيْخٍ، أَي: صَائِدٌ يَكْسِبُ لِأَبِيهِ، قَدْ تَحَنَّبَ: يَعْنِي الشَّيْخَ، وَقَدْ أَحْدَوْدَبَ، وَسَاغِبٌ: جَائِعٌ، يَبْغِيهِ الْجَنَا: مَا اجْتَنَى مِنَ الثَّمَرِ، الْمُنَاجِبِ: الْمَجَاهِدِ، النَّحْبُ: النَّذْرُ، الْعُصْمُ: الْأَرْوَى، وَعَصْمُهَا: خَطُوطُهَا فِي يَدَيْهَا، الْعَوَاقِبِ: مَآخِرِ الزَّمَانِ، كَرِيمِهِ: يَعْنِي شَيْخَهُ، أَحَاطَ بِهِ، أَي: الصَّائِدُ، بِأَسْمَرَ مَفْتُوقٍ: يَعْنِي بِسَهْمٍ مُخَلَّقٍ، مَفْتُوقٍ مِنَ النَّبْلِ: يَعْنِي سَهْمًا وَاسِعَ النَّصْلِ، وَالنَّصْلُ: الْعَرِيضُ، صَائِبِ: قَاصِدٌ أَوْ سَرِيعٌ.

الأزهار والأشجار التي يمتصُّ رحيقها، وتحدثوا كثيراً عن مواطن العسل، وكيف يَشْتَارُونَهُ بِالْحَبَالِ مِنْ شَمَارِيخِ الْجِبَالِ وَشَعَابِهَا، ثُمَّ مَا يَكَابِدُهُ الْمَشْتَارُ مِنْ تَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ، وَمَا يَتَعَرَّضُ لَهُ مِنْ أخطار. وذكر الماحظ أن الأعرابَ أَعْرَفُ بِكُلِّ صَمْغَةٍ سَائِلَةٍ وَعَسَلَةٍ سَاقِطَةٍ، وَأَنَّ أَهْلَ تِهَامَةٍ وَهُذَيْلًا وَضَوَاحِي كِنَانَةَ هُمْ أَصْحَابُ الْعَسَلِ (١).

واشتيَارُ الْعَسَلِ كَانَ سَائِدًا فِي مَنْطِقَةِ السَّرَاةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ الَّتِي تَسْكُنُهَا هُذَيْلٌ، وَتَعْلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْمَنْطِقَةَ فِيهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْجِبَالِ الْعَالِيَةِ الْمَكْسُوتَةِ بِالْأَشْجَارِ وَالْأَزْهَارِ، فَتَجْذِبُ إِلَيْهَا النُّحْلَ، لَمَّا فِيهَا مِنْ مَوَارِدِ الْمَاءِ الَّتِي تَنْبَتُ عَلَى حَوَافِّهَا أَلْوَانٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنَ الزَّهْرِ (٢).

وَكَانَ اشْتِيَارُ الْعَسَلِ يُعْتَبَرُ مِنَ الْمَخَاطِرِ وَالْمَشَقَّةِ بِمَكَانٍ، وَكَانَ يُعْرَضُ الْمَشْتَارُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ لِلْمَوْتِ وَالْهَلَاكِ، وَذَلِكَ كَمَا يَصُورُهُ شِعْرُهُمْ. وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ كَيْفَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَعَرَّضُونَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لِأَلْوَانِ شَتَّى مِنَ الْمَخَاطِرِ وَالصَّعُوبَاتِ، وَكَيْفَ أَنَّ تَابُطَ شَرًّا كَانَتْ لَهُ غَزَوَاتٌ وَصَوَلَاتٌ مُسْتَدِيمَةٌ لِأَحَدِ جِبَالِ بَنِي لَحْيَانَ، حَيْثُ كَانَ يَأْتِيهِ كُلَّ عَامٍ يَشْتَارُ مِنْهُ الْعَسَلُ فِي الْخَفَاءِ.

يَقُولُ ابْنُ حَبِيبٍ: "أَتَى - تَابُطَ شَرًّا - جِبَلًا فِي بِلَادِ بَنِي لَحْيَانَ مِنْ هُذَيْلٍ يَشْتَارُ مِنْهُ عَسَلًا، وَكَانَ يَأْتِيهِ كُلَّ عَامٍ، وَكَانَ ذَلِكَ الْجِبَلُ مُنْفَرِدًا، وَأَنَّهُ أَتَاهُ وَقَدْ وَضَعُوا عَلَيْهِ الرُّصْدَ، وَكَانَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَدَلُّوا حَبَلًا لَهُمْ، فَتَوَصَّلَ بِهِ تَابُطَ شَرًّا حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْغَارِ الَّذِي فِيهِ الْعَسَلُ، وَدَلُّوا إِلَيْهِ الْأَسْقِيَةَ، وَذَلِكَ بِأَعْيُنِ الْهُذَيْلِيِّينَ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَ قَرَارَهُ خَرَجُوا عَلَى الْقَوْمِ فَانْكَشَفُوا وَتَرَكَوهُ فِي الْغَارِ.

فَوَقَفُوا عَلَى الْغَارِ، فَنَادَوْهُ، فَأَطَّلَعَ رَأْسَهُ فَقَالُوا: اصْعَدْ! قَالَ: عَلَى مَاذَا أَصْعَدُ؟ قَالُوا: تَصْعَدُ فَنَرَى فِيكَ رَأْيَنَا! قَالَ: إِنْ كُنْتُمْ إِذَا صَعَدْتُ أَمَنْتُمْ مِنْ أَنْ تَقْتُلُونِي، وَقَبَلْتُمْ الْيَسِيرَ مِنَ الْفِدَاءِ مِنِّي، صَعَدْتُ تَأْكُلُونَ الْعَسَلَ الَّذِي اشْتَرْتُمْ؟ قَالُوا نَعَمْ: قَالَ: لَا وَاللَّهِ لِأَجْمَعْتُمْ عَلَيَّ قَتْلِي وَأَكَلِ عَسَلِي. وَجَعَلَ يَصُبُّ الْعَسَلَ، وَهُمْ يَتَعَجَّبُونَ وَيَضْحَكُونَ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ وَأَطْرَدَ النُّحْلَ فَأَبْعَدَ، أَخَذَ زِقًا فَشَدَّهُ عَلَى صَدْرِهِ ثُمَّ انْحَدَرَ

(١) الحيوان للجاحظ ٥ / ٤٢٦.

(٢) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص ٨٦.

في العَسَلِ، فلم يَزَلْ يَزُلُّ<sup>١</sup> به حتى وقع بالأرض وبينهم ثلاثة أميال، ثم انطلق فرجع إلى أهله<sup>(١)</sup>.

وإذا أردنا أن نلتَمَسَ ذلك في أشعارِ هُذَيْلٍ، فإننا نجدُ فيها الكثيرَ من الأشعارِ التي تحفُّلُ بذكرِ الاشتيَارِ، وما يعترِبه من التعبِ والنَّصَبِ ومن المخاطرِ والصعوباتِ، فهذا أبو ذؤيبٍ يصفُ رجلاً يشتارُ العسلَ، فيقول: رَبُّ أَشْعَثَ كُلِّ مَا يَمْلِكُهُ مِنْ مَالِ فَضَلَاتِ ثَوْلٍ - أَي عَسَلَ نَحْلٍ - عَلَى مَهْلِكَةٍ، لأن ذلك العسل كان على هضبة ملساء لا يسترها شيء وهو يرسم صورة واضحة ودقيقة لذلك الرجل الفقير المعدم، فهو ضامر ونحيل، وهزيل البدن، ولكنه قوي وشديد البأس، تدرب على صعود الجبال حتى يقف دُوَيْنَ الشَّمْسِ، ويصف ذلك العَسَالُ بأنه قد تَأَبَّطَ خَرِيطةً فِيهَا سَقَاءُ العَسَلِ، وصار يتتبع الحبل المربوط بالشَّيْقِ وهو أعلى الجبل عند نزوله إلى موضع العسل، فهو يصل إلى ما يريد، ثم يرجع سالماً فيقول:

وَأَشْعَثَ مَالُهُ فَضَلَاتُ ثَوْلٍ	عَلَى أَرْكَانِ مَهْلِكَةٍ زَهُوقِ
قَلِيلٍ لِحِمَّةٍ إِلَّا بَقَايَا	طَفَاطِفِ لَحْمٍ مَنَحُوضٍ مَشِيْقِ
تَأَبَّطَ خَافَةً فِيهَا مَسَابٌ	فَأَضْحَى يَقْتَرِي مَسَدًا بِشِيْقِ
عَلَى فَتْحَاءٍ يَعْلَمُ حَيْثُ تَنْجُو	وَمَا فِي حَيْثُ تَنْجُو مِنْ طَرِيْقِ
وَكَانَتْ وَقْبَةً فِي رَأْسِ نَيْقِ	دُوَيْنَ الشَّمْسِ ذَاتَ جَنَى أَنْيْقِ
فِيْمَمٍ وَقْبَةً أَعْيَا جَنَاهَا	عَلَى ذِي النِّيْقَةِ اللَّبْقِ الرَّفِيْقِ
فَجَاءَ بِهَا سُلَافًا لَيْسَ فِيهَا	قَدَى، صَهْبَاءُ تَسْبِقُ كُلَّ رَيْقِ <sup>(٢)</sup>

(١) المحبِّر لابن حبيب ص ١٩٧ (نقلًا عن شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص ٨٦).

(٢) ديوان الهذليين ١/٨٧، وكتاب شرح أشعار الهذليين ١/١٨٠ جماعة النحل، مهلكة زهوق: هضبة ملساء، مشيق: ضامر، المنحوض: القليل اللحم، الطفاطف: ما استرخى من جانبي بطنه عند الخاصرة، تأبَّط خافة: جعلها تحت إبطه، والخافة: خريطة من أدم ضيقة الأعلى واسعة الأسفل يشتار فيها العسل، فيها مساب: أراد مساب وهو السقاء. يقتري: يتتبع، مسدًا: حبلًا، الشيق: أعلى الجبل، وفي اللسان: ويقال الشيق هو أصعب موضع في الجبل، على فتحاء: يريد يقتري على فتحاء وهي يده فيها فتح أو لين. الوقبة: كالكهف في الجبل، جنى: يعني العسل، النيقة: الذكاء والحدق، وصهباء يعني العسل.

وهذا ساعدة بن جُوَيْبِة يصف رجلاً يشتر العسلَ ، ويحمل معه سقاءً وأعواداً حتى يُخرج بها العسلَ من وَقْبَتِهِ ، وكيف أنه دَلَّى حبالاً حتى يصعد عليها ثم ينزل بها، ويحدثنا كيف مضى ذلك الرجل حتى وصل إلى القمة ووقف على شِمْرَاخٍ من شمرايخ الجبلِ، وكيف أن تلك الطَّغْيَةَ - شمراخ من شمرايخ الجبل - كانت ناعمة ملساء لا تستطيع العقاب الوقوف عليها، لأن مخالبتها لا تثبت عليها لملاستها... يقول:

مَعَهُ سِقَاءٌ لَا يُفْرِطُ حَمْلَهُ	صُفْنٌ وَأَخْرَاصٌ يَلْحَنُ وَمِسَابُ
صَبَّ اللَّهَيْفُ لَهَا السُّبُوبَ بِطَغْيَةٍ	تُنْبِي الْعُقَابَ كَمَا يُلْطُّ الْمَجْنِبُ
وَكَأَنَّهُ حِينَ اسْتَقَلَّ بِرَيْدِهَا	مِنْ دُونَ وَقْبَتِهَا لَقَا يَتَذَبذَبُ
فَقَضَى مَشَارَتَهُ وَحَطَّ كَأَنَّهُ	خَلَقَ وَلَمْ يَنْشَبْ بِهَا يَتَسَبَّبُ
فَأَزَالَ نَاصِحَهَا بِأَبْيَضٍ مُفْرَطٍ	مِنْ مَاءِ أَلْهَابٍ عَلَيْهِ التَّأَلُّبُ (١)

وهذا أبو ذُوَيْبٍ يتحدث عن العسل واشتباره، وكيفية الحصول عليه بالحبال من فوق قمم الجبال، التي تقصر الصقور عن بلوغها، وما فيها من صعوبات محفوفة بالمخاطر، وأنه لو كانت المسافة بمقدار ثمانين قامة للإنسان، وكان ذلك طول الجبل، لا يتغاها بيده، ونالها بأنامله، يقول:

وَمَا ضَرَبَ بِيضَاءُ يَاوِي مَلِيكُهَا	إِلَى طُنْفٍ أَعْيَا بِرَاقٍ وَنَازِلٍ
تُهَالُ الْعُقَابُ أَنْ تَمُرَّ بِرَيْدِهِ	وَتَرْمِي دُرُوءَ دُونِهِ بِالْأَجَادِلِ
تَنَمَّى بِهَا الْيَعْسُوبُ حَتَّى أَقْرَاهَا	إِلَى مَأَلْفٍ رَحَبِ الْمَبَاءَةِ عَاسِلٍ

(١) المرجعان السابقان الأول ١٨٠/١ والثاني ١١١١/٣-١١١٢ لا يفراط حملُه: لا يغادر سقائه، الأخراص: أعوادٌ يُخْرَجُ بها العسل، والصفن: شيء مثل السفرة يُسْتَقَى به الماء، صب: دَلَّى حبالاً له يربطها في شيء ثم يتدلى، والسبب: الأسباب وهي الحبال والطغية: شمراخ من شمرايخ الجبل، المجنب: الترس والملطوط: المسوى، يلط: يستر، الريد: شبيه بالحيد، اللقا: ثوب خلق، وقبتها: خرقتها من أعلاها إلى أسفلها، الوقب: النقب في الجبل. يتذبذب: يتطوح، لم ينشب: لم يعلق وانخرط منحنطاً كأنه ثوب خلق، يتسبب: ينسل. ناصحها: خالصها، من ماء ألهاب: اللهب: مهواة في الجبل وهو شق في الجبل. والتألب: شجر، يريد أنه لم يعلق بالعسل السائل ولم يتلطح به، فيصفه بالخفة والنشاط والقوة على استخراج العسل من الوقبة، وكيف أنه قطع خالص العسل ومزجه بماء من غدير هناك.

فلو كان حَبْلٌ مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً  
تَدَلَّى عَلَيْهَا بِالْحَبَالِ مُوثَّقًا  
وَإِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا  
فَحَطَّ عَلَيْهَا وَالضَّلُوعُ كَأَنَّهَا  
وَتَسْعِينَ بَاعًا نَالَهَا بِالْأَنَامِلِ  
شَدِيدُ الْوَصَاةِ نَابِلٌ وَابْنُ نَابِلِ  
وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوْبٍ عَوَامِلِ  
مِنْ الْخَوْفِ أَمْثَالِ السَّهَامِ النَّوَاصِلِ (١)

ونراه في مَوْضِعٍ آخَرَ يَتَحَدَّثُ عَنْ عَسَلِ النَّحْلِ الْأَبْيَضِ الَّذِي فُتِنَ بِهِ، وَتَرَاهُ يَشْبَهُ  
الْعَسَلَ لَشِدَّةِ بِيَاضِهِ بِيَاضِ الْأَسْنَانِ، فَيَقُولُ:

فَجَاءَ بِمَزْجٍ لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ  
يَمَانِيَةَ أَحْيَالَهَا مَطًّا مَأْبِدًا  
هُوَ الضَّحْكُ إِلَّا أَنَّهُ عَمَلُ النَّحْلِ  
وَأَلْ قِرَاسٍ صَوْبٌ أَرْمِيَةٌ كَحَلِّ (٢)

وهكذا نرى أن مَصَادِرَ الثَّرَوَاتِ عِنْدَ هَذَا لَمْ تَكُنْ مَتَعَدَّةً الْجَوَانِبِ، وَمَخْتَلِفَةً  
الْمِيَادِينِ، وَمِنَ الْحَقِّ أَنَّهُ كَانَ لِلْحَيَاةِ عِنْدَ هَذَا لُجُودٌ وَجُوهٌ شَتَّى وَفُنُونٌ مَتَبَايِنَةٌ، وَلَسْنَا نَعْلَمُ  
إِذَا زَعَمْنَا أَنَّهَا كَانَتْ تَلَاثِمٌ بَيْنَ مَا تَرِيدُ وَبَيْنَ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَإِنَّ كَانَ رَعِيٌّ رَعَتْ، وَإِنْ  
كَانَتْ تَجَارَةٌ تَاجَرَتْ، وَإِنْ كَانَ غَيْرٌ هَذَا وَذَلِكَ فَهِيَ مَكِيفَةٌ ظَرُوفُهَا لِمَا هُوَ مَوْجُودٌ (٣).

(١) كِتَابُ شَرْحِ أَشْعَارِ الْهَزَلِيِّينَ ١/١٤٢. مَلِكُهَا: هُوَ يَعْسُوبُهَا وَفَحَلُّهَا الطُّنْفُ: حَيْثُ مِنْ  
الْجِبَلِ يَنْدُرُ وَرَأْسٌ مِنْ رُؤُوسِهِ، الضَّرْبُ: الْعَسَلُ الْأَبْيَضُ الصُّلْبُ، الرَّيْدُ: مَا نَتَأَ مِنَ الْجِبَلِ،  
الدَّرُوءُ: الشَّائِخُ مِنَ الْجِبَلِ، الْأَجَادِلُ: الصَّقُورُ جَمْعُ أَجْدَلٍ، عَاسِلٌ: كَثِيرُ الْعَسَلِ، تَنَمَّى،  
أَي: تَرَفَّعَ، أَقْرَهَا: أَنْزَلَهَا وَأَسْكَنَهَا. الْمَبَاءُ: الْمَنْزَلُ، الْمَأْلَفُ: الْمَكَانُ الَّذِي تَأَلَّفَهُ، شَدِيدُ  
الْوَصَاةِ، أَي: شَدِيدُ الْحِفَاظِ لِمَا أُوصِيَ بِهِ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: أَي: يُوصِيهِمْ بِالْحَبْلِ أَنْ شُدَّوهُ  
وَأَمْسَكُوهُ وَاحْتَفِظُوا بِهِ، نَابِلٌ: حَادِقٌ، لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا: لَمْ يَخَفْ وَلَمْ يُبَالِهَا، خَالَفَهَا، أَي:  
جَاءَ إِلَى عَسَلِهَا وَهِيَ غَائِبَةٌ تَرَعَى وَقَدْ سَرَحَتْ، نُوبٌ: تَنْتَابُ الْمَرْعَى فَتَأْكُلُ ثُمَّ تَرْجِعُ  
فَتُعَسَلُ، عَوَامِلٌ: تَعْمَلُ الْعَسَلَ وَالشَّمْعَ، فَحَطَّ: انْحَدَرَ وَضَلُوعُهُ تَرْجُفٌ مِنَ الْخَوْفِ وَحَذَرٍ  
السُّقُوطِ، فَشَبَهُ ضَلُوعَهُ وَهِيَ تَرْجِفُ بِسَهَامٍ قَدْ نُصَلَّتْ مِنْ قُطْبِهَا. وَالسَّهْمُ: إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ  
نُصْلٌ لَمْ يَسْتَقِمْ فِي ذَهَابِهِ وَاضْطَرَبَ، فَشَبَهُ اضْطِرَابَ ضَلُوعِهِ بِذَلِكَ.

(٢) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ ١/٩٦. الضَّحْكُ: ذَكَرَ الْأَصْمَعِيُّ أَنَّهُ الثَّغْرُ الْأَبْيَضُ، فَشَبَهُ بِيَاضَ الْعَسَلِ بِهِ  
لَشِدَّةَ بِيَاضِ الْعَسَلِ، الْمَطُّ: الرُّمَانُ الْبَرِّيُّ الَّذِي تَأْكُلُهُ النَّحْلُ وَهُوَ يَعْقُدُ وَرَقًا وَلَا يَكُونُ رِمَانًا،  
أَلْ قِرَاسٍ: مَوْضِعٌ، وَيُقَالُ إِنَّهُ جَبَلٌ بَارِدٌ، الصَّوْبُ: صَوْبُ الْمَطَرِ، مَأْبِدٌ: مَوْضِعٌ، وَالْأَرْمِيَّةُ  
وَالْأَسْقِيَّةُ: سَحَابَتَانِ مِنْ سَحَابَاتِ الْحَمِيمِ وَالْحَرِيفِ، وَهُمَا شَدِيدَتَا الْقَطْرِ وَالْوَقْعُ إِذَا مَطَرَتَا،  
كُحْلٌ: جَمْعُ أَكْحَلٍ وَهُوَ الْأَسْوَدُ.

(٣) شَعْرُ الْهَزَلِيِّينَ د. أَحْمَدُ كَمَالُ زَكِي ص ٨٥ بِتَصْرِيفٍ.

وكان من هذَّيلِ الأغنياء الذين ملكوا الآبال والأغنام والخيول، وكان منهم كذلك الفقراء الذين لا يملكون شيئاً، فقد كان فيهم بعض الأثرياء مثل جُنْدُب بن الحارث الذي كان كثيرَ المال، ويقال: إنه كان أكثرَ أهلِ بلاده مالاً، وكان رجلاً سَلماً للناسِ كلِّهم، ولذلك كان يُدعى "النُوَيْعِم" لِنِعْمَتِهِ (١).

كما كان عندهم الفقراء الكثيرون الذين أصابهم الذُّلُّ من شِدَّةِ فَقْرِهِمْ وفَاقَتِهِمْ، فهذا مالكُ بن الحارث يَتَبَرَّمُ من الفقرِ ويذمه، ويذكر أن أصحابَ المالِ يُثَنِّي عليهم وإن قُبِحَتْ وجوهُهُمْ، لأنَّ المالَ يزيْنُهُمْ، ثم يذكر أن الفقراء يحترمون الأغنياء ويُجْلِسُونَهُمْ وقد يسجدون لهم، ولو أنهم لم ينتفعوا بمالهم، يقول:

رَأَيْتُ مَعَاشِرًا يُثَنِّي عَلَيْهِمْ إِذَا شَبِعُوا وَأَوْجَهُهُمْ قِبَاحُ  
يَظَلُّ الْمُصْرِمُونَ لَهُمْ سُجُودًا وَإِنْ لَمْ يُسَقِّ عِنْدَهُمْ ضَيَاحُ (٢)

فلا عجب أن يكون عندهم كثيرٌ من الفقراء، فالحق أن بيعتهم كانت قاسيةً جداً، فقد تَجَشَّمُوا حياةَ الصحراء، وما فيها من صعوباتٍ، وسكنوا فيها الخيام، ومارسوا حياتهم البدوية، بل إن بعضهم كان في العراء، كما صور ذلك حبيبُ الأعلَم حين صورَ أولاده الصغار الذين تركهم في الصحراء لا يملكون قوتهم، ولا ينظر أحدٌ إليهم، فهو يخاف عليهم الجوع، ولكنه مع ذلك يأمل في أهله وقربته، أن ينظروا إليهم ويعطفوا عليهم، ويأتوهم بشيء يقتاتونه، ونراه في أبياته يشبه أطفاله بالجحاش الصغار من أولاد الحمير، وهي صورةٌ مؤلِّةٌ حقاً، يقول:

وَذَكَرْتُ أَهْلِي بِالْعَرَاءِ وَحَاجَةَ الشُّعْثِ التَّوَالِبِ  
الْمُصْرِمِينَ مِنَ التُّلَا دِ اللَّامِحِينَ إِلَى الْأَقَارِبِ  
وَبِجَانِبِي نَعْمَانَ قُلْتُ أَلَّنْ تُبَلِّغَنِي مَآرِبَ (٣)

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢/ ٨٤٤.

(٢) المرجع السابق ١/ ٢٣٨. الضياع: اللبن الرقيق الكثير الماء، المُصْرِمُونَ: المقلون، لهم سجوداً، أي: يُعْظَمُونَهُمْ.

(٣) المرجع نفسه ١/ ٣١٥. العراء: الصحراء والمراد بالشعث ولذده. التوالب: الجحاش، المُصْرِمُ: المقل الذي لا مال له، التلاد: المال القديم. نَعْمَان: موضع في بلاد هذيل، مآرب: حوائج.

وهذا أبو خراش يحدثنا عن امرأته، وإعجابها ببعض الأغنياء، وانصرافها عنه لفاقتة وعوزة، ويذكر أنها قالت له: لولا أنني ابتليت بك وتزوجتك لتزوجت رجلاً سيِّداً سواك، فيقول:

رَأَتْ رَجُلًا قَدْ لَوَّحَتْهُ مَخَامِصٌ	وَطَافَتْ بَرْنَانَ الْمَعْدَيْنِ ذِي شَحْمٍ
غَنَازِيٍّ لِقَاحٍ لَا يَزَالُ كَأَنَّهُ	حَمِيَّتٌ بَدِيعٍ عَظْمُهُ غَيْرُ ذِي حَجْمٍ
تَقُولُ فَلَوْلَا أَنْتَ أَنْكَحْتُ سَيِّدًا	أَزْفُ إِلَيْهِ أَوْ حُمِلْتُ عَلَى قَرْمٍ
لَعَمْرِي لَقَدْ مُلِّكْتُ أَمْرَكَ حِقْبَةً	زَمَانًا فَهَلَا مَسَتْ فِي الْعَقْمِ وَالرَّقْمِ (١)

وكانت هذيل - كسائر العرب - تتمسك بالقيم والتقاليد العربية، من الكرم والجود وإكرام الوفود والضيوفان، وفي أشعارهم الكثير مما يصور ذلك، وكان الإخلال بتقاليد الضيافة، أو التقصير في واجب الضيفان، يثير الشعراء فيعبرون عن شعورهم، ويرفعون أصواتهم موضحين آراءهم بكل صراحة في وجه ذلك التقصير إزاء القيم والأخلاق العربية النبيلة.

فهذا المتنخل الذي كان قد نزل بقوم فجفي، وكان قرأه عندهم الحتي وهو سويق المقل - وهو ما تسميه العامة: الدوم - فقال شعراً في ذلك، ينتقد فيه تلك الحادثة، وذلك التقصير في واجب الضيفان، ويذكر أنه لو جاءه رجل جائع ومهتلك لقام بواجب ضيافته وإكرامه خير قيام، ثم ذكر أن فعلهم هذا يعتبر إهانة له، وأن إهانة الرجل تؤثر فيه تأثيراً شديداً ويشعر ويحس بها كتحزير جلده أو جسده بالسيف... أي: يشعر به ويجد وجعه كما يشعر بوجع حز في جسده.... فيقول:

لَا دَرَّ دَرِّي إِنْ أَطْعَمْتُ نَازِلَكُمْ	قَرَفَ الْحَتِيَّ وَعِنْدِي الْبُرُّ مَكْنُوزٌ
لَوْ أَنَّهُ جَاءَنِي جَوْعَانٌ مُهْتَلِكٌ	مِنْ بُؤْسِ النَّاسِ عَنَّهُ الْخَيْرُ مَحْجُوزٌ
أَعْيَا وَقَصَّرَ لَمَّا فَاتَهُ نَعَمٌ	يُبَادِرُ اللَّيْلَ بِالْعَلْيَاءِ مَحْفُوزٌ

(١) ديوان الهذليين ٢: ١٢٨ لوحته مخامص: غيرته مجاعات، برنان المعدين، أي: إذا ضرب معدية أرتنا من صفائهما وصلابتهما فسمعت لهما صوتاً، والمعد ما تحت العضد، وقال بعض اللغويين: إن معدى الإنسان جنباه، الحميت: النحي يرب فإذا رب فهو شديد، بديع، أي: جديد لم يستعمل، قرم: فحل يربي ولم يستعمل، العقم والرغم: نوعان من الوشي.

إلى أن يقول:

يا لَيْتَهُ كَانَ حَظِّي مِنْ طَعَامِكُمْ  
إِنَّ الْهَوَانَ فَلَا يَكْذِبُكُمْ أَحَدٌ  
يا لَيْتَ شِعْرِي وَهَمُّ الْمَرْءِ يَنْصِبُهُ  
هل أَجْزَيْتُكُمْ يَوْمًا بِقَرْضِكُمْ  
أني أَجَنُّ سَوَادِي عَنْكُمْ الْجِيزُ  
كأنَّهُ في بِيَاضِ الْجِلْدِ تَحْزِيرُ  
والمَرْءُ لَيْسَ لَهُ في العَيْشِ تَحْزِيرُ  
وَالْقَرْضُ بِالْقَرْضِ مَجْزِيٌّ وَمَجْلُوزٌ (١)

وهذا الأعلَمُ الذي نزلَ عندَ رجلٍ - من بني زُليْفَةَ بنِ صُبْحِ بنِ كاهلِ بنِ الحارثِ ابنِ تميمِ بنِ سَعْدِ بنِ هذيلٍ - يقالُ له حُبْشِيٌّ ، وكان مع الأعلَمِ أولادُه الصغار فلم يُضِفْهُ ولم يَقْرَهُ ، ولم يصنَعْ به خيراً ، فقال الأعلَمُ في ذلك :

تَرَوَّحْتُ حُبْشِيًّا فَأَتْرَحُ إِلْدَتِي  
أَحْبَشِيُّ إِنَّا قَدْ يُمَتِّعُنَا الْغِنَى  
وَنَحْبِسُهَا عَلَى الْعِظَائِمِ نَتَّقِي  
إِذَا النَّفْسَاءُ لَمْ تُخْرَسْ بِبِكْرِهَا  
أَحْبَشِيُّ لَمْ تَشْمَتْ أَوْانَ شِمَاتِي  
جَزَى اللَّهُ حُبْشِيًّا بِمَا قَالَ أَبُو سَأْ  
كما زُحِرَتْ عندَ الْمَبَارِكِ هَيْمُهَا  
بِأَمْوَالِنَا نُرِيحُهَا وَنُسِيمُهَا  
بِهَا دَعْوَةُ الدَّاعِينَ إِنَّا نُقِيمُهَا  
غُلَامًا وَلَمْ يُسْكِتْ بِحَتْرِ فَطِيمُهَا  
وَلِلدَّهْرِ أَيَّامٌ رِغَابٌ كُلُّومُهَا  
بِمَا رَامَ أَشْيَاءُ بِنَا لَا نَرُومُهَا (٢)

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/ ١٢٦٣ قِرْفُ الْحِيتِي: يعني قِشْرَهُ وَالْحِيتِي: المُقَل وهو الدَّوْمُ، مُهْتَلِكٌ، أي: يَهْتَلِكُ عَلَى الشَّيْءِ لَا يَتِمَّاكُ دُونَهُ، تَعْجِيزٌ: تَقْصِيرٌ، مَحْجُوزٌ: حُجْزٌ عَنْهُ، أَعْيَا: كَانَ مَعَ نَعَمٍ فَفَاتَتْهُ النَّعَمُ وَأَعْيَا عَنْهَا، يَحْفَزُ: يَدْفَعُ مِنْ خَلْفِهِ، وَالْعَلْيَاءُ: كُلُّ مَكَانٍ مَرْتَفِعٍ، وَالْجِيزُ: شِقُّ الْوَادِي الَّذِي أَنْتَ فِي غَيْرِهِ، يُنْصَبُهُ: يُشْخِصُهُ وَالصُّوَابُ يَتَعَبُهُ، مَجْلُوزٌ بِهِ، أي: مَرْبُوطٌ بِهِ حَتَّى يُجْزَى بِهِ.

(٢) المرجع السابق ١/ ٣٢٦. تَرَوَّحْتُ: رُحْتُ إِلَيْهِ، أَتْرَحُهُمْ: أَشْقَاهُمْ وَحَرَمَهُمْ، زُحِرَتْ: نُحِيتُ، الْهَيْامُ: دَاءٌ يَصِيبُ الْإِبِلَ مِنْ نَبْتٍ تَأْكُلُهُ فَلَا تَرُوى مِنَ الْمَاءِ حَتَّى تَمُوتَ، نُرِيحُ أَمْوَالِنَا، أي: بِالْعَشَى إِلَى مِبَاءَتِهَا، وَنُسِيمُهَا: وَنَسَمِيهَا: إِلَى مَرَاعِيهَا فِي الْغَدَاةِ، نَحْبِسُهَا، أي: عَلَى الْأَضْيَافِ وَمَا يَنْوِينَا. نَقِيمُهَا: نُعَدُّهَا، الْخُرْسَةُ: طَعَامُ الْوَلَادَةِ، الْحَتْرُ: الشَّيْءُ الْقَلِيلُ، رِغَابٌ: وَاسِعَةٌ كَثِيرَةٌ، كُلُّومُهَا: جِرَاحَاتُهَا وَأَفَاتُهَا، أَبُو سَأْ: شَرَأٌ، رَامَ: طَلَبَ وَأَرَادَ.